«كم لبثنا»

2011
2018

سرد تاريخي

« على عكس أهل الكهف
كـانت أياماً بحجم أعوام »

بقلم
وسام غياث القالش

تاريخ الإصدار 2020

إلى أمِّيَ الطَيِّبَةِ ...

((لَم أكُن أتَوَقَّعُ أن أُهدِيَ هَذَا العَمَلَ لَهَا ... بَل لَم يَعُد لِي أحَدٌ لِأُهدِيهِ شَيئاً سِوَاها))

← كُنتُ أظُنُّ أنَّها كَمَا وَعَدَتني سَتَنتَظِرُ انتِهَائِيَ مِن كِتَابَتِهِ كَي تَقْرَأهُ فَهَي الوَحِيـدَةُ التـي يَهُمُّنـي أن تَقرَأ ما أكتُبُه .

← وَ كُنتُ أظُنُّ أيضاً أنَّها سَتُخبرُني بالأخطَاءِ التي وَقَعتُ بها فَهيَ أحسَنُ مَن يُقَوِّمُ أخطَائِي .

← وَ كُنتُ أظُنُّ أنها سَتَدعَمُني لأجتَازَ كُلَّ تِلكَ العَثَرَاتِ التي لا تَكَادُ تُقَارَنُ بفَقدِهَا وَ تَلَمُّسِي مَكَانَهـا فَلا أرَاهَا وَلا أجِدُها و لا أسمَعُ لَها صَوتاً إلا فِي أحلَامِي ، كَم كَانَت جَمِيلَةً تِلكَ العَثَرَاتِ مَعَهَا حِينِها .

أُهدِيهِ لكِ وَ لِكُلِّ أمَّهَاتِ الشُّهَدَاءِ وَ الأمَّهَاتِ التي حُوصِرَتْ وَصَبَرَتْ واحتَسَبَتْ و هَاجَرَتْ أو بَقِيَتْ مُجْبَرَةً تَرى قَاتِلَ أطفَالِهَا وَمَن حَاصَرَهَا أمَامَهَا وَلا تَستَطِيعُ القَصَاصَ مِنهُ .

إليكنَّ أنتنَّ أهدِيكُم هَذا العَمَل ....

((مُحْتَوَيَاتُ الكِتَاب))

- المُقَدِّمة : ____ 3
- الفصل الأول : ((كُنّا بُسَطَاء)) ____ 7
- الفصل الثاني: ((لَم يَرحَمْنَا أحَد)) ____ 30
- الفصل الثالث : ((ضَاعَت بُوصَلَتُنَا)) ____ 46
- الفصل الرابع : ((لَم نَترُكَها ولكَن)) ____ 57
- الفصل الخامس : ((بِدَايَةُ النِّهَايَة)) ____ 72
- الفصل السادس : ((هَكَذا خَرَجنَا)) ____ 95
- الفصل السابع : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحدِثُ بَعدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ ____ 113
- الخَاتِمَة : ____ 125

**مُقَدِّمَة **

كَم لَبثنَا ... عَلَى عَكسِ أهلِ الكَهفِ كَانَت أيَّامَاً بِحجِم أعوَام

اعلَم أيُّها القَارِئُ بِأنَّ هَذِهِ الحُرُوفَ المَكتُوبَة، كَانَ مِدَادُها دِمَاءُ الأبرياء، وَصَرَخَاتُ الثَّكَالَى وأصوَاتُ الأمعَاءِ الخَاوِيَة.

لنَ يُحَدّثَكَ كاتبُ هذهِ الكُلّمَاتِ عَن عَذاباتِ العُصور الوسطَى وَلا عن مَجازِر هُولاكُو، بَل هيَ أدهَى وأمرُّ، هي ليست أحداثاً من الزمن الغابر، بل هي مأساةٌ حديثةُ العهدِ، مَأساةُ هَذَا القَرن...

مَا ستقرَأه من مَآسيَ احتَوتهُ تلكَ البُقعَةُ الجغرَافيةُ الصّغيرةُ "الغُوطَة الشَّرقيَّة" آملُ ألاَّ تكتفيَ بها كذكرى تاريخيةٍ فحسب، إنّمَا رجَائي أن تجعلها درساً يُقتدى بمحاسنه، ويُتجنَّب مساوئه.

فإذا أردت أن تختارَ عُنواناً لِتَخَاذُلِ الإنسانيّةِ وَتمَاوتِ الضّمائرِ البَشريَّةِ فَأرى أنَّ هَذِهِ الحُروفَ سَتُلَبّي حاجتك...

خُلاصَةُ القَول:

إنَّ مَواقفَ "كَمْ لَبثنَا" هيَ حقيقةٌ وَواقعٌ مَحفورٌ في ذَاكرةِ كُلّ ثائرٍ نَادَى يَوماً مَا بالحريَّة وَتطَلَّعَ للكرامة.

****

شاهر إحسان

"الغُوطَة ، هيَ الكُورة ُالَّتي قصبتُها دمشقُ، وهيَ كثيرةُ المياهِ، نَضِرَةُ الأشجارِ، مُتَجاوبــةُ الأطيــارِ، مُؤنقَــةُ الأزهارِ، مُلتفَّةُ الأغصانِ، خَضرةُ الجنَانِ، استدارتُها ثَمانيةَ عشرَ ميلاً، كُلّها بساتينٌ وقصورٌ، تُحيطُ بها جبــالٌ عاليةٌ من جميع جهاتها، ومياهُا خارجةٌ من تلك الجبال، وتمتد في الغُوطَة عدَّةُ أنهارٍ، وهــي أنــزَهُ بِقَــاع الأرضِ وأحسنها."

وكَانَ القدماءُ يَعدُّونَها من عجائبِ الدّنيا

((كتاب عجائب البلدان))

غوطة دمشق
حسب تحديد
وزارة الإصلاح الزراعي
الدوير
القصير
الرمان
خناصر
الريحان
دوما
المنذرعة
بتوانة
برزة
حرستا
العبّ
مسرابا
مدير
الشؤونية
قابون
عربين
بيت سوى
أوتايا
الزريقية
دمشق
حمورية
جوبر
زملكا
حوش الاشعري
حزة
افترين
سقبا
بيت نايم
كفر
جسرين
عين ترما
بطنا
مرج السلطان
المزة
معضمية
جرمانا
مليحا
حديثة الجرش
حوش بالا
حرستا
القنطرة
زبدين
بزينة
حوش العدمل
البلاط
دير العصافير
نولة
القدم
داريا
يلدا
عقربا
خيارة نوفل
حوش الدوير
حوش بلاس
قبر الست
حديثة التركمان
شبعا
بجدلية
حجيرة
صحنايا
البويضة
أشرفية صحنايا
مركز ناحية
الأراضي التابعة لناحية دوما
الأراضي التابعة لقضاء الغوطة الشرقية
الأراضي التابعة لقضاء الغوطة الغربية

أسردُ في هَذَا الكتَابِ بَعضَاً ممَّا عِشنَاهُ خِلالَ الأيَّامِ المئَةِ الأخيرةِ داخلَ "الغُوطَة الشَّرقيَّة" قبلَ أن يُشَـوّهَ التاريخُ مَا تَبقَّى منَّا وَقبلَ أن يَخُطَّ نظامُ البعثِ بَقَلمِهِ الدَّامي تاريخاً مُشَوهَاً كَشاكُلّتهِ، وَالَّذي وقـفَ مُختَـالاً عَلَى أشلاءِ شعبٍ نَادَى بـالحرّيَّةِ يَومَاً.

وَلعلّ التَّاريخَ يُذَكرُنَا قبلَ أن نندَثِرَ معَ مواقعِ التَّواصُل الاجتماعي.

✓ الكتابُ عبارةٌ عن سبعةِ فُصولٍ، الفُصولُ الثلاثَةُ الأولَى مُقدّمةٌ تَاريخيَّةٌ للنَّتيجَةِ الَّتي سَتكُونُ في الفُصولِ الأربَعةِ الأخِيرة.

وسام غياث القالش

الفَصلُ الأَوَّل:

** كُنَّا بُسطَاء **

- ✓ تستغرقُ الأفكارُ كَثيرا منَ الوقتِ كي تَكتمِلَ إلى أن تَبدأ بصيَاغتِهَا ضمنَ مَفاهيمَ وَمَبادئَ ثابتةٍ إلى حدٍّ مَا وَذلكَ لكي تضعَ لنفسكَ مساراً تحسبُهُ بأنَّهُ الصَوابُ ضمنَ تلكَ القواعد، فمنهَا مَا يتغيَّرُ عبرَ الزَّمن وَاكتسابِ الوَعي وَمنهَا ما يثبتُ فعلاً كطبعٍ تَتخذهُ أُسلوباً عَامَّاً تُدافِعُ عَنه.
- ✓ إذ بالمثل تَتكونُ ثَقافةُ المُجتمَعاتِ، فَهيَ عِبَارةٌ عَن تَراكُمَاتٍ لِمَا يعِيشُه الأفرادُ، تلك المقدّمةُ الفلسفيةُ كَانَت إحدَى النتائجِ الَّتي وصلتُ إليها خلالَ السَّنَواتِ السَّبعِ من مُحاولةِ التَّغييرِ وَالَّتي كُنتُ أُراقِبها بشَغفٍ لأَنَّني كُنتُ أظنُّها لَن تَتكرَّرَ لنفسِ الجيلِ أكثرَ مِن مَرَّة... كُنَّا مُجتَمعَاً مُلتزِمَاً بالتقاليدِ أكثرَ ممَّا كُنَا نَتوقَّعُ!
- ✓ تلك التقاليدُ الَّتي كُنَّا نُلبِسُهَا لَبُوسَ الدِّين كي تَكُونَ مُقنِعَةً لِدَاخِلِنَا حَتَّى وَلو لَم تَكنْ مُقنعةً بِحدِّ ذَاتِهَا وَلِكَي نَستطيعَ إسبَاغَها شَرعيّةً تَتوَارَثُهَا الأجيالُ فِيمَا بَعد.

❖ كَانَ مُجتمعُ "الغُوطَة الشَّرقيَّة" الملاصقِ لأزقَّةِ دمشقَ.. يتمتَّعُ بتلكَ البَسَاطَةِ، وَالَّتي تَفيضُ عَاطِفَةً بَعيداً عَن أجواءِ المدينةِ الَّتي لا تَستطيعُ أن تُميّزَ بِهَا لَوناً مُعيَّناً، عداكَ عن بعضِ العَـاداتِ وَالتَّقاليدِ وَالقِيم الَّتي تُمَيّزُ كُلّ مِنهُمَا عَلَى حِدَةٍ، حيثُ كَانَ وَاضحاً جَليَّاً عندَ احتكَاكِكَ بالمُجتمَعينِ ذاكَ الفَارق، وَمِن وُجهةِ نَظري فَهَذَا شَيءٌ طَبيعيٌّ وَمَوجُودٌ فِي كُلّ الثَّقَافَات.

✓ كَانَ ذلكَ سَبباً رئيسَاً وَالَّذي جَعلَها مِن أوائِلِ المُدنِ الثَّائرةِ، نَاهيكَ عَـن الأسـبابِ الأُخـرَى الَّتـي تَتَشَارَكُ بِهَا مَع بَاقي المَناطقِ كالقَمعِ والاستبدَادِ وَالتَّخويفِ المُمَنهَج.

علاوةً علَى كَونِهَا مَنطقَةً جُغرَافيَّةً تُحيطُ بدمشقَ، تَحملُ طَابَعاً دِينيَّاً وَثَقَافيَّاً يَغلبُ عَلى أهلِهـا، ولا زَالت تَتمسَّكُ بهِ وَالَّذي يّتّخوّفُ منهُ أيُّ نظامٍ يقومُ عَلى سياسةِ الفَصلِ وَالتَّفرقَةِ بينَ المَناطقِ وَيقتاتُ عَلى الأقليَّات.

وهَذَا مَا شَاهدنَاهُ فِعلاً في بَاكُورةِ الثَّورة عندَمَا ارتَقى [أربَعةَ عشَرَ شهيداً] في مَدينَةِ "دُوما" كَـانَ مِـن بينهم شَهيدان مِن مَدينةِ "عربين"، وَشَهيدٌ مِن مَدِينَةِ "سَقبَا"، تلكَ الظَّـاهِرَة لَـا يَسـتغرِبُهَا الكَثيـر لأنّ التَّفصيلَات الإداريَّة للمَناطِق كَانَت غَيرَ مُهمَّةٍ بِطَبيعَةِ الحَال.

وَلَكِن كَانَت الهَاجِسَ المُخيفَ للنِّظام، وَهَذَا مَا حَدَّثَنِي بِه أحدُ المُنشَقِينَ عَنِ الجَيشِ حِينَهَا؛ بِأنَّ جُغرافيَّـةَ المَنطقة المُتصِلة ببعضها.. لَيست كَبَاقِي الأرياف، عَداكَ عن النَّوعيَّة الدِيمُغرافيَّة "السكَانيَة" للمنطِقَة.

✓ أذكُر أنَّ أيامَ الجُمعةِ بَدأت تَتَوالى بِمُسمَّيَاتِهَا الَّتي كَانَ يُطلقُهَا عَليهَا نَاشِطُو الثَّورة آنذَاك.

من بينِ تَسارع الأحداثِ الَّتي لن آتِي عَلى تَفصِيلهَا كُلّها، وَذَلك لِضيقِ هَذِهِ الوُريقَات، وَالَّتي لاَ تَتَّسعُ لِكُلّ تلكَ الأحداثِ الَّتي حَصلت، وَإنَّمَا الغَرضُ مِنهَا سردٌ بَسيطٌ، وَتوضيحُ بَعضِ الأسبابِ لتلكَ النتيجةِ الَّتـي عَاشـتهَا الغُوطَة خلالَ أخرِ مِئةِ يَومٍ من أيامِ حُرِّيَّتِهَا المحاصرة.

بدأت عَجلةُ الثَّورة تدورُ لتصلَ إلى "الجمعة العظيمة " كَانَ أهلُ الغُوطَة قد قرَّرُوا أن يُوسِّــعُوا نِطــاقَ التَّظاهرِ، وَيَدخلُوا دمشقَ بِمشهدٍ مُشَابهٍ لتلكَ الدُّولِ الأُوربيَّةِ وَالَّتي بدورِهَا تقومُ بإرســالِ كــوادرَ الشَّــرطةِ وَرجَال الأمنِ لِحمايةِ الشَّعب مِن أيّ أحداثِ عُنفٍ أو إسَاءةٍ قَد تَحدُث، هكذا كنَّا نَظنّ، كَم كنّا سذجاً حِينَهَا.

← وَلرُبَّمَا كَانَت رياحُ التَّغييرِ الَّتي قَد عَصفت بنَا، وَبِطَريقةِ تَفكيرِنَا قَد سَاهَمت فِي نُمُوٍّ بُذُورِ الــوَعي عندَ عَددٍ لَا بأسَ بهِ، فالمَغرَمُ كَانَ أكبرَ ممِّا نَتوَّقعُ، أكبرَ مِن إدراكنَا لِمَا قَد وَصلنَا إليهِ حتَّى، علَى ما يبــدُو أنَّ جُرحَ الثَّمانينات لم ينضبْ، وَغَليل البَعثِ لَم يُشفَ بعد، بِالرُّغم من حَمــلات الاعتقــال وَالقمــع، وَإرهــابِ الشَّعب الَّذي دَامَ بَعدَ أحداثِ حماة وَلم ينقطع إلى اندلاع الثَّورة.

كنتُ أسمعُ من جدَّي أنّ بعضَ أقربائي قد هاجرُوا إلى خارجِ البلادِ في تلكَ الفَترةِ وَلازَالُوا هُناكَ خَوفًا من بَطشِ البَعث.

كثيراً مَا كُنتُ أستغربُ تلكَ القَّصةَ، فعلَى الرُّغم من مُرور أكثرَ من رُبع قَرنٍ عَلـى تلـكَ الأحـداثِ، وَلازَالـوا مُلاحقينَ بتُهمَة الشُّبهةِ فَقط.!

← أيّ شُبهةٍ هذهِ الَّتي لا يُمكنُ لأفرع المُخابراتِ أن تَنسَاهَا عَلَى مَدَى تلكَ السنين، من أيـنَ يَسـتقونَ حِقدهم؟

وَمَا ذاكَ المَنبعُ الأسودُ الَّذي لا يَجفُّ.؟

← أذكرُ آخرَ نُقطةٍ وَصلنَا إليهَا كَانَت جِسرَ" زَمَلكَا – جَوبَر"، وَالَّذي يَصِلُ إلَى سَـاحَةِ العَبَّاسِـيِّينَ، ومـن الطَّرَفِ الأخرِ "جِسرُ الكَبَّـاس" الَّـذِي يَصِـلُ بـينَ الدُّخَانِيَّـةِ وَعَـينِ تَرمَـا، وينتهـي إلـى "مجمـع ٨أذار"، كَانَـت تِلـكَ النّقَـاطُ أخِـر مَـا شَـاهَدتُه مِـن دمَشـقَ حَتَّـى كِتَـابَتِي لهـذه السـرد، لا أدري كم عددُ الشُّهداء الَّذين سقطُوا حِينَهَا، فالمشهَدُ كَانَ صادماً، كَانَت مَجزرةً تَشهدُ فنواتُ اليُوتيوب لها، عداكَ عن عشرَاتِ الآلافِ من العُيونِ الَّتي كَانَت حاضرةً تُشاهدُهَا على الأرض حِينذَاك.

← أذكرُ أنَّني نظرتُ إلى ذلكَ السَّيل البَشري المُمتَّد لبضعةِ كيلو مِتراتٍ عَلى طريقِ "عــربين ـ زملكــا" حيثُ بدأت الوفُودُ تَتجمَّعُ هُناكَ قَادمةً من: "دُومَا"، و"حَرَستَا"، و"مِسرَابَا"، و"حَمُّوريِّة"، و"المَنَاطِقَ الشَّرقيَّة"؛ لكي تزحف إلى دِمشق، وَتعتصمُ داخلَ ساحةَ (بني أمية) بمظهرٍ حضاريٍّ كأيّ شَعبٍ لهُ ماضٍ في بناءِ الحَضارة.

← حِينَهَا أدركت مخاوف النِّظَام مِن ذَلك، وانتِهَاجَهُ لِمَبدأ " فَرِّقْ تَسُدْ"، فَتِلكَ المَنطِقَــةُ الثَّــائِرَةُ كَانَــت الأصْعَبَ بالسَّيطرةِ عليها؛ كَونها ملاصقةً لنواةِ الحكمِ، وتمتلكُ ذَلكَ السَّيلُ البشريُّ الضَّخم، وهَذَا مــا ظَهَــرَ جلياً أثناء التهجير حيثُ إنَّ عددَ المُهجَّرينَ مقارنة بباقي المناطق لا يكادُ يُذكرُ أمامَ مَن قَد قــرَّرَ تــركَ أرضِ الغُوطَة الشَّرقيَّة على البقاء تحتَ حُكم البعث مرَّةً أُخرى.

← كَانَ الرَّقم يُقاربُ السبعين ألفَ مُهجَّرٍ أو يزيد، وَأظنُّ أنَّ الإحصائيات مُتَوفَّرةٌ علــى مَواقِــع التَّواصُــل الاجتماعي، كَانَت تلكَ الجُمعةُ نقطةَ تَحولٍّ، فقد تَمَّ وضعُ أوَّلِ خَطٍّ أحمرَ أمامَ الغُوطَة كي لا نحاولَ التفكيــرَ بعدَهَا بتخطّيه، فَلا يَزالُ المُجتمَع الدُّوليِّ حائراً بعد، وَلم يتخذ قراراً، وَلا أظنُّهُ قَــد اتَّخــذ، بــدأت بَعــدَهَا الخُطوطُ الحمراءُ تُحيطُ بنا من كُلّ جانبٍ بطريقةٍ لم أكُن مُقتنعاً بها، فَقد حُوصِرَ مَــا يَقــربُ مــن (أربعــة ملايين) إنسان ضمنَ مَنطقةٍ جُغرَافيَّة كَـ (شُعْبِ أبي طالب).

← لم تكن "ثلاث" بل كَانَت "خمس" سنوات، كُنَّا نأملُ أن يُمزِّقَ تلكَ الخُطوطَ مَن قَد تَصدَّرُوا صَـداقتَنَا، وَمَن تَهاوشُوا عَلَى الصَيدِ فِيمَا بَعد، وَمن ثُمَّ أدَاروا دِفَّةَ أجندَاتِهم بأموالهم لِمَصالِحهم الَّتي تَلاقَت معَ بُـذورِ التَّغييرِ لفَترةٍ منَ الزَّمن، لا كَما كنَّا نظنُّ بأنّهُم تَأثَّرُوا بمظلوميَّةِ هَذَا الشَّعب المُضـطهَد طيلـةَ (أربَعـينَ سَنة)..

← لم أؤمن يوماً بالمؤامرة الَّتي يتكلّم عنها الكثير من الناس، ومن اتخذ من الدين وسيلة، حيـث كَـانَ هؤلاءِ ممن قد صدّعَ آذانَنَا من قَبْلُ بِتِلكَ الهَرْطَقَات، ولَكِن مَا إن كُسِرَ وَهمُ القَيدِ إذ هُم أوَّلُ مَن نَهَشَ لَحـمَ ذَلِكَ الشَّعبِ، ذاك الشَّعبُ الَّذي ضاقَ ذَرعَاً بِحَجمِ الهُوَاءِ الَّذي كَانَ يُحَاوِلُونَ حَشْوَهُ أدمِغَتَنَا، ويَتَلَقفُهـا بِـنَهَم مُثيرٍ للغرابة و للشَّفَقَةِ في آنٍ وَاحِدٍ (جَمَاعةُ كُنَّا عَايشِين).

← ولم أؤمن أيضاً أنَّ سببَ تَهجيرنَا الرَّئيسيّ كَانَ تَقصيرُنا وَحدَهُ، وَعدمُ إدرَاكَنا للوَاقِـع المُحِـيطِ بِنَـا، وَاستغلالُ التحالفات الإقليمية لخدمة هذه الثَّورة بالرُّغم من كونه أحدَ الأسبابِ المُهِمَّةِ الَّذي مَازلنـا نَجلِـدُ أنفُسَنا بِهِ حتَّى اللحظة، فكُلّ تلك العلاقات الدُّوليِّة بين الدولِ المُستفيدةِ كَانَت أساساً أيضاً بما نحنُ عليهِ، فبالإضافةِ إلى سَـذَاجَتِنَا كَـانَ هُنالـكَ مُسـتفيدٌ مـن عَـدمِ تَوحيـدِ بُوصَـلَتنَا، وَجَعلِهَـا مُختلفـةً بـ (مَالٍ)،أو(سُلطَةٍ)،أو(قِطعَةٍ مِنَ الأرضِ)، يُغريهِ بِمُلكِها بِوعُودٍ كَسَرابٍ يُصدِّقُها بَعضُ مُلـوكِ الكَرتُـون ، كمَـا فعلَ بعضُ قَادةِ الفَصائلِ في فترةٍ منَ الزَّمن خلالَ حُكمِهم للمنَاطقِ الَّتي سيطرُوا عليهـا بعـدَ انسـحابِ النِّظَام منهَا، كنَّا أغراراً وَحديثِي عَهدٍ بالمَكرِ السِّياسِيّ حِينذاك.

← كَانَ مُجتمعُ الغُوطَة حينذاكَ قد كَسرَ ظاهرةَ الكراهيَّة بينَ المُدن المُختلفةِ، وَالَّتي كَانَ يزرعُهَا نظامُ البَعثِ في نفوسِ أهلِ الغُوطَة ، وَفي عُمومِ سُوريًا إن صحَّ التَّعبيرُ كي يَبسُطَ نُفـوذَهُ مـن خـلالِ الفَصـل المُجتمَعيّ .

حيثُ كَانَ يتَّبِعُ أُسلُوباً يبثُّ مِن خِلالهِ بخبثٍ صفاتٍ سيَّئةٍ يتمُّ تَداوُلها بين المناطق؛ لتَتراشَقَها فِيمَا بينَهَا، وَيَتركَهم كي يَتخاصَمُوا، وَ لتزدادَ العداوةُ وَالبغضاءُ فيما بينهم، وَلا يسعَى لتَقويمٍ أو إصلاحٍ فيمَا بَينهم، فهُوَ المُستفيدُ في نهايةِ الأمرِ، فَفِقدانُ المناطِقِ الثِّقة فيمَا بَينهَا يَصبُّ في مَصلَحتِهِ، وَيَستقِرُّ لَهُ المُلك .

← مع بُزوغِ الأمل بدأت تتلاشى كُلّ تلكَ الكراهيةِ، لتحلَّ الفطرةُ السليمةُ محلَّها، وذلكَ لتحقيقِ هدفٍ أكبرَ يَرنُو له هَذَا الشَّعب، حيثُ بَاتَت المُدنُ تُضحِّي بنفسِها؛ لكي تحميَ بَاقيَ المدنِ، والَّتي يُصَعِّدُ النِّظَام عليها حملاتهِ واعتقالاتهِ، أذكرُ أيضاً كيفَ كَانَت الوُفود الكبيرة تأتي لجبرِ خَاطرِ المُدن الأُخرى، بلا أيّ دافعٍ سِوَى أنَّها مُدنٌ حَاولَ النِّظَام أن يُفرِّقَها لِسنَواتٍ، وَلم يستطع.

← بعيداً عن التَّوصيف الوَرديّ لتلكَ الأيّام، وَلكن كَانَت تحملُ مَشاعرَ صادقةً يَشهدُ لهَا كُلّ أهلِ الغُوطَة، كَانَ معظمُ النَّاس حِينَهَا يَنتابُهم شعورُ العزَّة وَالفخر لمجرَّدِ الانتسَابِ إلى صفوفِ الثَّورة، بالرُّغم منَ الخَوف القَاتلِ الَّذي يتَمَلَّكُ مَن يُذاعُ صيتُهُ حِينَهَا، وَيُقرنُ بالثَّورة؛ لأنَّ حِمَمَ البَعثِ ستَتَعدَّاهُ لتصلَ أهلهُ، وَأصدقَاءَهُ، وَمَن لَهُ صِلةٌ به.

← كَانَ العَامُ بينَ {2011 – 2012} "سنة الفقد" كما كنتُ أُطلِقُ عَليها حِينَهَا، كُنَّا فريسةً سهلةً لوحوشِ النِّظَام، والَّذين كَانَوا قد اعتَادُوا لحمَ البَشرِ عَلى مَا يبدُو، فكَانَت تلكَ السَّنةُ تختارُ سيِّء الحظَّ، والَّـذي لـم يستطع الهربَ من قبضتِهم؛ ليغيبَ في ظُلماتِ البَعثِ سنين!

← لم تصدِّق تلكَ الوحوشُ حِينَهَا أنَّ يوماً مَا سيأتي؛ لِيَخرُجَ هَذَا الشَّعب عَلى "هُـبَلِهِم" ذاك، أو يفكّـرَ لِمجرَّد التّفكيرِ بأنَّ لهُ حقوقاً يجبُ أن يُطالبَ بهَا، لم يتصوَّرُوا يوماً أن يَجرُؤَ أحدٌ على رفع عَينيهِ مِن تَحـتِ جِفنَيهِ حَتَّى لَو كَانَتا مُغلقَتين.!!

← التهبَ فتيلُ الثَّورةِ في تونسَ، واعتصمت مِصرُ، وَانتفضَت ليبيا، وَهبَّتِ اليمنُ، ومازلنا نَعتقـدُ بَـل وَنجزمُ استحالةَ وُصولِ رياحِ التَّغييرِ إلينا، فَمن يَعلمُ كيفَ كَانَت سُوريًّا تُحكم؟ يَدري تَماماً مَا أقصدُهُ، شَعبٌ عَانَى حُكماً قَهريًّاً لعَشراتٍ منَ السِّنين، جَعلها في آخر المَوكبِ العَالميّ، وَإجرامٌ فاقَ التَّتارَ، وَتَخلُّـفٌ تَعـدَّى الحُدود والمنطق الحضاري لشعب عريقٍ عاصرَ كُبرى الحضارات على مرّ التاريخ.

← لم تُبدع تلكَ الأنظمةُ سِوى بِالتَّهليلِ عبرَ قَنواتِها لِمُعجزاتِ "هُبل"، و"اللات"، و"العزى"، كُـلّ فـي مَعبَدِهِ، وعلى قَنَواتِهِ.

إلهٌ يَغفرُ لِمن يُسبِّحُ بحمدِه، وَيقتلعُ اللِّسانَ مَع مَا يَتصِلُ بهِ من دِماغٍ لمن يُفكـرُ بِـالتَّمرُدِ، أو حتَّـى المُطالبةِ بِحقُوقِهِ الفكريّةِ خَارجَ السجنِ الكَبير، ويُسجنُ بتهمةِ إقلاقِ الأمنِ القَوميّ، وَالنَّيلِ من هَيبةِ الدَولةِ، وَالانتسَابِ لمنَظَّماتٍ لا تُناسبُ نِظامَ العُبوديّةِ ذَاك.

← كَانَـت التَّعدُّديَّـةُ لَـديهِم يَـتُمُّ تَعريفُهَـا "كمـا تُلفَـظُ باللغَـاتِ الأجنبيَّـة" بشـكُلّ معـاكس لمفهُـوَم الجملـة باللغـة العربيـة، أي باختصـار: يتعـدد الشَّـعب، ويتغيـر، وقـد يهجـر، ويـزول؛ لأجل الحاكم..

فـ:(المُندسِّين)، وَ(الجَراثيم)، و(مَن أنتُم)، و(الإرهَابيين)، وَ (المَدفُوعينَ مِنَ الخَارج)، كَانَت مُفرداتٍ لِتعزيـز مَفهُوَمِ تغيير الشَّعب، طَبعاً ذلكَ لا يَندرجُ تَحتَ بندِ التَّغيير الدِيمُغَرافِي للأرض، وَالمَنصُوص عَليهَـا فِـي مَجلسِ الأُممِ المُتَحدَةِ وَالَّذي لا أدري كيفَ لتلكَ القَرارَات أن تُطَبَّقَ عندمَا يَحلُو للقَـائِمينَ عَليهَـا بِتطبيقهَـا حَسبَ مَصالِحهم.

أذكُر أنَّ أبي وغَالبَ الآبَاءِ وَقتَها التزَمُوا الصَّمتَ، فَهُم يَقِفُونَ عَلَى نَصلِ سَيفٍ ذُو حَدَّينِ، يَرونَ الخَطـأ، وَيعرفُونَ حَجمَ وَحشِيَّةِ النِّظَام، والَّتي لَم تَسمح لنَا أعمَارُنَا حِينَهَا أن نُدركَها، لا أُبَرِّرُ لَهم ذَلكَ، وَلكنِّـي أصـفُ وَاقِعَاً كُنَّا نَعيشُهُ آنذَاك.

← بَدأت الأَصواتُ حِينَهَا تَدورُ في فَلكِ المُطالبةِ بالإصلاحاتِ، وَالَّتي لم نَقتنِع بِهَا يَوماً، كَانَـت حُجَّـةً لتَخفيفِ حَجمِ الصَّدمَةِ كي يَستَوعِبها النِّظَام؛ بِأنَّ هَذَا الشَّعب قَد نَطقَ بَعدَ كُلّ ذلك القمع.

لَكن مَا صُدمَ بهِ الشَّعب أكثرُ هُوَ مُقابَلةُ مَطالِبه عبرَ قَنواتِ النِّظَام بالسُّخريَةِ، وَتبريراتٍ كَانَت نَاجحَـةً فـي ثَمانِينيَاتِ القَرنِ المَاضِي.!!!

← صُدمَ بهُبوطِ مُستوى التَّعَاطي مَعَ الأمرِ لَدى النِّظَام، وَعَدمِ مُوَاكَبتِهِ للأَكاذِيبِ الجَديدَةِ، الَّتي تَمَتَّع بِهَا غَيرُهُ مِن طغَاة الدُّولِ العَربيّةِ، وَالَّذينَ استطَاعُوا أن يَمتَصُّوا ثَورَاتِ شُعوبهم بِالتَّخدِيرِ المُؤَقَّت، وَالَّـذي سَينتَهي مَفعُولُه يَوماً مَا، فَهذهِ سُنَّةُ الحَياةِ، وَسَيلحَقُونَ رَكبَ التَّغيير، وَلَو بَعدَ حِين.

← كنَّا نَنتَظِرُ خِطَابَ رَأسِ النِّظَام كَي يَتنازَلَ بِبَعضِ المُفردَاتِ للشَّعبِ، وَلَكن لا يُمكنُ للمُستَبِدّ يَوماً أن تُطَاوِعَهُ نَفسُهُ، وَلا مُفرَدَاتُه كَي يَتنازَلَ لِشعبِهِ، أو حَتَّى يَستعمِلَ كُلّمَاتٍ لَبِقَةٍ بِحقّ مَن يَضـطَهِدُهُ، فَكَانَـت جُملةُ:

" إذَا أرادُوا الحَربَ فَيَا أهَلاً وَسَهلاً بِهَا " حَقيقةً وَوَاقِعَاً سَيُطَبّقُه، لَم أستَوعِب يَوماً أنَّ شَخصَـاً مُتَّزِنَـاً فِـي مَنصِبٍ كَهَذَا سَيَقُولُها لِشعبِهِ ((بِأنّهُم إذا اختَارُوا الحَربَ، فَسوفَ نَكُونُ أهلاً لَها بِتلكَ الطَّرِيقَةِ الوَقِحَة)) .

وَفعلاً بَدأ بِمَا قَالَ، وَأطلقَ وُحوشَ المُخَابَرَاتِ تَنهَشُ مَا استَطَاعَت مِنَ المُتَظَاهِرِينَ و ممن لا عَلاقةَ لَه و ممن قد نَأى بِنَفسِهِ عَن المُطالبةِ بِحَقِّهِ فلم تشفَعْ لَهُ مِنَ العِقَاب الجَمَاعِي .

اللَّافِتُ للنَّظرِ حِينَهَا هُوَ تَسريبُ مَقَاطِعِ التَّعذيبِ، وَالَّتي بَاتَت تِلكَ التَّسريبَاتُ مُمَنهَجَةً؛ لِكَي يُوصِلَ رِسَـالةً لِذلكَ الشَّعب بِأنَّ مَا فِي جُعبَةِ النِّظَام أسوأُ مِمَّا تَعتقدُون .

لـ عِلماً أنَّ بعضَ المَقاطِعِ كُنَّا نَحصَلُ عَليَها عَن طَرِيقِ العنَاصِرِ الَّذين انشَقُّوا عَـن جَـيشِ النِّظَـام، وَالَّذينَ كَانَوا يُوَثّقُونَهَا بِطَرِيقةٍ تُشعِلُ الحَمَاسَ وَالوَحشيَّةَ فِي نُفُوسِ عَنَاصِرِ المُخَابَرَاتِ وَالمُرتَزِقَةِ، الَّـذينَ بِدَورِهم كَانَوا يَسمَحُون لَهم بِالتَّصوِيرِ، وَيعلمُونَ أنَّها سَتَنتَشِر!

← كنتُ ولا زلتُ على يَقينِي السَّابقِ بِأنّ سيَاسَة الهَزيمةِ النَّفسيَّةِ، وَعَامِلُ الـرَّدع بِـالخَوفِ كَانَـت مِـن وَسَائلِ أنظمَةِ الاستبداد؛ بَل ومنذُ بِدايةِ بُزوغ طَبائع الطَّمع عندَ البَشَريَّةِ، وَهَذَا مَا شَهِدتُهُ بِعيَنَيَّ فِي تلـكَ الفَترةِ، فَلَم أدَع مَقطَعَاً إلَّا وَتَابَعتُهُ، وَحَاوَلتُ تَفسيرَ العَقلِيَّاتِ فِي ذَلكَ الوَقت.

← فَقـدنَا فِـي هَـذهِ السَّـنَةِ الكَثيـرَ مِـنَ الأسـمَاءِ اللَّامِعَـة عَلَـى مُسـتَوى الغُوطَـة ، وَالكَثيـرِ مِـن أصـحابِ الفِكـرِ الَّـذينَ تَشَـجَّعُوا، وَأشـعَلُوا فَتيـلَ الثَّـورَةِ، كَانَـت وُفُـودُ النِّظَـام حِينَهَـا تَطلُـبُ أن تَتَحـاوَرَ مَـعَ أهـالِي المَنَـاطِقِ الثَّـائِرةِ كُلّـاً عَلَـى حِـدة؛ لكـي تَأخُـذَ مَطـالبَهُم، وَتَمتَصَّ غَضَبَهُم بِطَريقةٍ مُضحِكَةٍ،

فَكُلّنَـا يَعلـمُ أنَّ: الـذّئبَ لا يَـأمنُ جَانِبَـهُ وَإن بَانَـتْ ضَـوَاحِكُهُ، فَكَانَـت الهُـوَةَ كَمَـا بَـينَ السَّـمَاءِ وَالأرضِ؛ أنَّى لَهُم أن يَفهَمُوا شَعبَاً أرَادَ أن يَتَحَرَّر؟.

← لأصدِقُكُمُ القَولَ حِينَهَا: كَانَ هَذَا النِّظَام غَبِيَّاً؛ لِدَرَجةِ أنَّهُ لَم يَجدِ الطَّرِيقَةَ المُثلَـى للتَّعامُـلِ مَـعَ تَحرُّكَاتِ شَّعبٍ ظننَّا أنَّهُ غَابَ في دَيَاجِي البَعْث ، ففي ظِلِّ وُجودِ وَسَائِلِ التَّواصُلِ الاجتِمَاعِيّ، كَانَت مَقَـاطِعُ التَّعذيبِ ومَقاطعُ التَّضلِيلِ الإعلَامِيِّ تُشعِلُ فِي النُّفُوسِ جَذْوَةَ الحُريِّةِ أكثرَ فَأكثرَ، والغَريـبُ فـي الأمـرِ أنَّ المَصَالِحَ الإقلِيمِيَّةِ وَالدُّوليِّةِ تَنحَرجُ فَقط مِن مَوَاقِعِ التَّواصُلِ وَلا شيءَ سِوَى الحَرجْ!

لـ فَكُلّ تِلكَ المَقَاطِع وَما بَعدهَا من المَجَازِر، وَالقَصفِ بِالمَوَادِ المُحَرَّمَةِ دُوَلِيًّـا، وَالَّتـي وُثِّقَـت لَحظَـةَ القَصفِ، وَمَا بَعدَ القَصفِ، لَم تَنفَعْ ذَاكَ الشَّـعب سِـوَى بَعضَـاً مِـنَ البَيانَـاتِ الَّتـي كَانَـت غَنِيَّـةً جِـداً بِعبَارَاتِ:(الاستنكار)، و(التَّهدِيدِ بِجعَلِ المَلفِ السُّوري تَحتَ البَندِ السَّابِع) الَّذي لَم نَعرِف مَا هُوَ حَتَّـى يَومِنَـا هَذَا، وَلَكِن مَا حَفِظنَاهُ بَعدَهَا هِيَ تِلكَ الأَيادِي الَّتي تَرتَفِعُ فِي كُلّ مَرَّةٍ لِإلغَائِهِ مِن خِلالِ قَرَارَاتِ الفِيتُـو فِـي "مجلس الأمن".

← كَانَت إحدَى مَطَالِب مَدينَتِي الإفراجُ عَنِ الأَطفَال، الَّذينَ اعتقَلَهُم النِّظَـام فِـي عَـام (٢٠٠٦) بِتُهمَـةِ تَفجِيرِ الإذَاعَةِ بِدمشَقَ؛

لِنَكتَشِفَ فِيمَا بَعدَ ذَلكَ أَنَّ اللُّعبَةَ كُلّهَا كَانَت مِن صُنعِهِ وَتَلفِيقِهِ؛ كَي يَظهَـرَ أَمَـامَ العَـالمِ أَنَّـهُ المُحَـارِبُ للإرهَابِ عِندَ انتِشَارِ صِيتِ وَمُصطَلَحِ الإرهَاب بَعدَ أَحدَاثِ بُرجِ التِّجَارَةِ العَالَمِيَّةِ فِي عَـام ٢٠٠١ فِـي الوِلايَـاتِ المُتَحِدَةِ الأَمرِيكِيَّة

لـ فعلاً قَد استِجَابَ النِّظَام لِدَعوَى الأهَالي، وَقَامَ بِإخرَاجِهم، لَم أُصَدّق حِينَهَا، فَهُوَ أجرمُ مِمَّا نَتَوَقَعُ؛ لا أدري لِمَ أطلقَ سرَاحَهُم؟ وَلَم يُطلِق سَرَاحَ مَن اعتَقَلهُم بِحُجَّةِ التَّظَاهُرِ السِّلمِيّ ، تِلكَ هِيَ سِياسَةُ الدُّولِ الَّتـي تَرسُمُ استِبدَادَهَا لِسَنواتٍ، فَهُم يعلمونَ تِلكَ الشَّمَاعَةَ الَّتي ستُطلِقُ يَدَهَم فِيمَا بَعد؛ بِأن تَضربَ مِن حَديدٍ، ألا وَهِيَ مُحَارَبَةُ التَّطَرُفِ وَالإرهَابِ، وَالَّتي وَبِبسَاطَةِ هَذَا الشَّعب لَم يَعلَم مَا يُحَاكُ لَـهُ فِـي أقبيَـةِ مُخَـابَرَاتِ الشَّيَاطِين، حتَّى مَن خَرجُوا هُم أنفُسُهم لَم يَكُونُوا عَلَى دِرَايَةٍ بِذَلكَ، وَلَم يُدركُوا حَقِيقَةَ استِخدَامِهِم!

← لَم تَكُن تُهمَةُ الإرهابِ هِيَ السَّبَبُ بِمَا نَحنُ عَليهِ –باعتقادي ـ وَهَذَا مَا شَاهَدتُهُ فِـي العَديـدِ مِـنَ المَنَاطِقِ الَّتي لَم يَستَطِع النِّظَام صَبغَهَا بِهِ، وَمِن ثُمَّ أحرقَهَا، وَلَم يَأبَه لَهَا، وَلَكن كَانَت مِـنَ الوَسَـائِلِ الَّتـي يُتقِنُهَا النِّظَام، وَذَلكَ لإخرَاج المُجتمَع الدُّوليِّ مِنَ الإحرَاج أَمَامَ الإعلَام لَا أكثَر، فَعُمَلاءُ النِّظَام مِمَّن لَا يُحسَبُونَ عَلَى التَّيَّارَاتِ الإسلَامِيَّةِ، كَانَوا لَا يَقلُّونَ خَطَراً عَن تِلكَ التُّهمَةِ التي تُطلقُ العَنَانَ لاستباحةِ كلِّ شيءٍ ؛ وَلَكِن لَا يُمكِنُ للنّظَامِ أن يَستَفيدَ مِمن لا يَتطَابَقُونَ مَعَ المواصفاتِ للتَّرويجِ لِذَلكَ الإعلَان الرخيص .

← وَاجهَ النِّظَام بَعضَاً مِنَ الصُّعُوبَةِ النَّفسيَّةِ لَا أكثَر فِي المَنَاطِقِ الَّتي لَم تكُن فِيهَا فَصَائِلُ مُصَنَّفَة، أو مُؤَدلَجَة، لَم تَشفَع لَهُم حَتَّى انتِفَاءِ صِفَةِ الإرهَابِ الدُّوليِّ عَنهُم، وَلَم تَدعُ المُجتمَع الدُّوليِّ لَلتَّحرُّكِ مِن أجلِهـم تَحتَ أيّ بَندٍ مِنَ البُنُودِ الإنسَانِيَّة الَّتي يَتَشدقُونَ بِهَا عِند كُلّ مَحفَل، لَيسَ دِفَاعَاً عَن أيّ تَيَّارٍ؛ وَلَكن لِيَكُـونَ تَوصِيفَاً مُنصِفَاً لِوَاقِعٍ عَايَشتُهُ، فَالقُوَّةُ هِيَ مَن تَنفِي عَنكَ صِفَةَ الإرهَابِ، وَفِي وَاقِعنَا أمثِلَةٌ كَثِيـرَةٌ، وَمَـا الكِيمَاوِيُّ عَنَّا بِبَعِيدٍ.

← كَانَت تَمتَدُّ مُدَّةُ الاعتِقَالِ لأغلَبِ المُتَظَاهِرِينَ المَدنِيّين الَّذينَ لَم يَكُن لَهُم أيُّ صِلَةٍ بِالتَّنسِيقِيَّاتِ أو مَا شَابَهَ ذَلكَ، بَينَ الشَّهرِ إلَى ثَلاثَةِ أشهُرٍ، وَمَن ثَبتَ عَليهِ التَّعَامُلُ مَعَ تَنسيقِيَّاتِ الثَّورَةِ، فَإمَّا مَازَالَ هُنَاكَ يَنتَظِرُ العَفوَ الَّذي لَن يَشمَلَهُ يَوماً أو أنَّهُ صَارَ رَقمَاً تَمَّ وَضعُهُ عَلَى مَا قَد تَبَقَّى مِن جَسدِهِ، وَدُفِنَ فِي إحدَى المَقَابِرِ الجَمَاعِيَّةِ فِي مَنطِقَةِ "نَجهَةَ" أو غَيرُهَا أو قد نراه في صُوَرٍ لأشبَاه بشرٍ مسرَّبةٍ في ألبوم كّـ (قيصر) .

← تَتَوَسَّعُ رُقعَةُ التَّظَاهُر، وَتَرتَفِعُ مَعَهَا وَحشِيَّةُ النِّظَام، فَبعدَ وَضع حَواجِزَ بِمُحِـيطِ دِمشـقَ، تَـمَّ إقحَامُ الجَيشِ فِي مَعركَةٍ مَعَ شَعبِهِ بَعدَ أشهُرٍ مِن عَجزِ أجهِزَةِ المُخَابَرَاتِ وَالمُرتَزَقَةِ وَمَنْ اعتَمَدَ عَليهِم مِـنَ المُنتَفِعِينَ.

كَانَت الطَّبَقَاتُ المُجتمَعيَّةُ تَنقسمُ كَمَا هُوَ فِي مُجتمعَاتِ العَالَمِ الثَّالِثِ، فَالتُّجَّارُ: لِدَفعِ مُستَحَقَّاتِ مُـدُنِهِم، وَتَغطِيَةِ تَكَاليفِ قَمعِهَا، وَأصحَابُ الشَّهَادَاتِ وَأَشبَاهُ المُثَقَّفِينَ ــ أصحابُ الجِدَالَاتِ البِيزَنطِيَّةِ ــ فِي مَقَـاهِي العَجَزَةِ، وَأصحَابُ الدِّينِ وَاللِّحَى، وَالَّتي لَم نَعرف نَوعيَّةَ الدِّينِ الَّذي يَتَّبِعُونَهُ، وَالَّذي يَأمُرُهُم بِـالوُقُوفِ ضِـدَّ المَظلُومِ، حَيثُ يَقُومُ بِالتِقَاطِ أجزَاءٍ مِنَ الدّينِ بِطَرِيقَةٍ تَجعَلُكَ تَشُكُّ بِمُعتَقَدَاتِكَ، فَهَؤُلاءِ الفِئَةُ الَّتي تُعتَبَرُ الأفضل دراية بِمَا تَدِينُ بِهِ!

← وَمَا تَبقَّى شَعبٌ، بَسيطٌ، طَيّبُ القَلبِ، يَقتَنِعُ بِالقَلِيلِ الَّذي لَم يَعَد يَجِدُهُ، القَلِيلِ مِنَ الانتِمَاء، القَلِيلِ من التَّعبِير، القَلِيلِ مِن عَدَمِ الاستِغبَاءِ، كُلّ تِلكَ الأُمُورِ مِن مَجَالَاتِ السَّبقِ العِلمِيِّ، وَالتَّهَافُتِ للتَّصنِيعِ، وَالحُصُولِ عَلَى بَرَاءَاتِ الاختِرَاعِ، لَم تَكُن سِوَى أَشيَاءَ خَيَالِيَّةٍ أو مُستَحِيلَةٍ، نُشَاهِدُهَا عَلَى شَاشَاتِ التّلفَازِ فِي كَوَاكِبَ تُشَابِهُ هَذَا الَّذي نَعِيشُ بِهِ.

← من عَاصِمَةِ الأُمَوِيّينَ حَكَمنَا العَالَمَ لِعَشرَاتِ السّنِين يَوماً مَا، وَالَّتي إن دَلَّت عَلَى شَيءٍ فَإِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى مُستَوى قَابِلِيَّةِ هَذَا الشَّعب عَلَى مُوَاكَبَةِ الرَّكبِ؛ بَل، وَالتَّفَوّقِ عَلَيهِ فِي حَالِ كَسرِ ذَلكَ القَيدِ الاشتِرَاكِيِّ البَعثِيِّ، بَعِيداً عَن التَّرَنُّمِ بِالمَاضِي كَمَا اعتَدنَا، وَلَكِن تِلكَ حَقِيقَةٌ تُضَافُ إِلَى رَصِيدِ هَذا الشَّعبِ.

← لَم تَكُن يَوماً ثَورَةَ جُوعٍ، أو مَطَالِباً لِخَفضِ أسعَارِ الوُقُودِ أو لأيِّ مَطلَبٍ يَتَشَارَكُ فِيهِ البَشَرُ وَبَاقِي الحَيوَانَاتِ فِي تَحصِيلِهِ، بل كَانَت المَطَالِبُ أكبرَ مِن عَقلِيَّةِ النِّظَامِ وَاستِيعَابِهِ، كَانَت ثَورَةَ حُرِّيَّةٍ وَكَرَامَةٍ وَاستِردَادٍ لِلحُقُوقِ، فَالهَاوِيَةُ الَّتي كُنَّا نَسقُطُ بِهَا وَالتَّخَلُّفُ العِلمِيِّ وَالحَضَارِيِّ وَالثَّقَافِيِّ وَالتَّعلِيمِيِّ فِي أدنَى مُستَوَيَاتِ خطوطِ التَّمثِيلِ البَيَانِي لِـ: حَضَارَةِ دِمشَقَ العَرِيقَةِ.

← كَانَ حُلُم الشَّبَابِ الطَّامح للتَّغيير يَقتَصِرُ عَلَى الهِجرَةِ؛ لأَنَّ الحياةَ الرُّوتِينِيَّةَ الَّتي تَبدأُ مَا بَعدَ الوِلَادَةِ إِلَى أن تَحمِلُكَ النَّاسُ إِلَى مَثوَاكَ الأَخيرِ مُكرَّرَةٌ قَاتِلَةٌ لَنَا، وَنَحنُ عَلَى قَيدِ الحَيَاةِ، كَانَت ثَورَةً عَلَى كُلّ تِلكَ المَفَاهِيمِ الَّتي أُلفِينَا عَلَيهَا أَبَاءَنَا الَّتي كَانَت مُشَرَّبَةً بِلُوثَةِ البَعثِ، ثَورَةً عَلَى كُلّ تِلكَ المَرجِعيَّاتِ الوَرقِيَّةِ الَّتي تَمَّ تَصنِيعُهَا فِي أَروِقَةِ المُخَابَرَاتِ العَالَمِيَّةِ قَبلَ المُخَابَرَاتِ السُّورِيَّةِ.

← كَانَت ثَورَةً عَلَى المَنَاهِجِ الفِكرِيَّةِ وَالإِسلَامِيَّةِ المُعَاقَةِ تِلك، كَانَت وِلادَةً لِطَرِيقَةِ تَفكِيرٍ خَارِجَ الصُّندُوقِ، كَانَت بِدَايَةَ تَغيِيرٍ مُفَاجِئٍ للعَقلِ الرَّجعِيّ النَّمَطِيِّ حَتَّى، لَا أَدرِي هَل كَانَت كُلّ تِلكَ التَّكلّفَةِ البَاهِظَةِ عَلَى قَدرِ ذَاكَ المَكسَبِ مِنَ الوَعي أَمْ أَنَّ مَوقِعَنَا الجُغرَافِيّ زَادَ مِن ثَمَنِ التَّكلّفَةِ لِتُصبِحَ أَكثَرَ بِكَثِيرٍ مِن مَطَالِبِنَا البَسِيطَةِ.

← بَدَا الفَارِقُ وَاضِحاً بِينَ المُجتَمَعِ دَاخِلَ دِمشَقَ وَالغُوطَة مَعَ تَقَدُّمِ الأَيَّامِ شَيئًا فَشَيئًا، اختَلَفَت وُجهَاتُ النَّظَرِ وَتَبَايَنَ حَجمُ الحُرِّيَّاتِ وَتَبَاعَدت الأَهدَافُ لِكُلّ طَرَفٍ، وَمَعَ مُرُورِ الزَّمَنِ اختَلَفَت مُستَوَيَاتِ المَعِيشَةِ وَطُرُقُ التَّفكِيرِ حَتَّى .

كَانَ مِن أَقسَى مَا حَدَثَ وقتها برأيي نَجَاحُ ذَلكَ النِّظَامِ بِفَصلِ المَنَاطِقِ جُغرَافِيًّا وَبَشَرِيًّا وَفِكرِيًّا وَلَا سِيَّمَا دِمَشقُ وَغُوطَتُهَا، حيث كَانَ يَعمَلُ عَلَيهَا طيلةَ فترةِ عبثيتهِ بالحُكم إلى أن نَجَحَ بها بَعد سنواتٍ منَ الجوع.

ـ عِلماً أنَّ قِسماً كَبيراً مِن أهلِ الغُوطَة اختَارَ العَيشَ فِي دِمشقَ بِظُرُوفِهِ الاضطِرَارِيَّةِ وَالاختِيَارِيَّةِ كُـلّ حَسبَ ما يراه، وَقِسماً لَا بَأسَ بِهِ مِن أهَالِي دِمشقَ اختَارُوا العَيشَ دَاخِلَ الغُوطَة حَسبَ حَالَتِهِ وَظَرفِهِ الَّـذي كَانَ مُتَاحاً وَقتَهَا.

لِتَبدأ مَرحَلَةٌ جَدِيدَةٌ مِن تَارِيخ الغُوطَة ، فبينَ الشَّهرِ السَّابِع لِعَام (٢٠١٢) وَبِدَايَةِ عَام (٢٠١٣) بَـدأ بِسـحبِ الحَوَاجِزِ التَّابِعَةِ للجَيشِ مِن دَاخِلِ الغُوطَة ، مِنهَا مَا كَانَ بَعدَ مَعَارِكَ دَامِيَةٍ، وَمِنهَا مَا سَحَبَهَا مِن دُونِ مُقَاوَمَةٍ، وَذَلكَ عِندَ عَجزِ الجَيشِ عَن إيقَافِ المَدِّ الَّذي كَانَ يُوَاجِهُه، فَهُوَ يُوَاجِهُ شَعباً يَرفُضُ وُجُودَهُ.

ـ فَقَد حَاوَلَ مَع الشعبِ كُلّ وَسَائِلِ القَمع ، إضَافَةً لِعَدَمِ نَجَاحِهِ بِدَفعِهَا نَحوَ التَّسَلُّحِ الكَامِـل، فَكَـانَ التَّسَلُّحُ يَقتَصِرُ عَلَى حِمَايَةِ المُظَاهرَاتِ السِّلمِيَّةِ بِالإضَافَةِ لِبَعضِ العَمليَاتِ البَسيطَةِ الَّتي كَانَ يَقُـومُ بِهَـا الثُّوارُ؛ حَيثُ حَصَلَت مُحَاوَلاتٌ مِن كَتَائِبَ بَسيطةٍ دَخلَت حَيَّ المَيدَانِ الدِّمَشقِيِّ، وَبعضَ المُنَاوَشَاتِ فِي بَسَاتِينِ المَزَّةِ وكَفَرسُوسَة.

هَكَذَا انسحبَ النِّظَام مِنَ الغُوطَة ، وَ تَركَهَا بعدَ مُحَاولاتٍ لإرضَاخِهَا بالتَرهِيب وَ إعَادتها لِحَظيرةِ الاسـتِعبَاد، خَرجَ منها بَعدَما أيَقنَ بَأنَه يَحتَاج لخِطَة يُشيطن بها الشَعبُ الذي يُنَـادي بالحُريّـة كَـي يَشـعُر بالرّاحَـة (إعلامياً) حينما يَقُوم بإبَادَتِه.

← يَحضُرُني في تلك الفترةِ ازديادَ حَوادِثُ التَّفجير داخلَ دِمشقَ، كَانَت رِسَالةً وَاضِـحَةً مِـنَ النِّظَـام لِلعَالَم الخَارِجِيِّ بِأَنَّهُ بَدأَ مَعرَكَتَهُ مَعَ تِلكَ التُّهمَةِ الَّتي حَاوَلَ إلصَاقَهَا بِالثَّورَةِ مِنذُ بِدَايَتِهَا وَصَبغِهَا بِالإِرهَـابِ، إضَافةً إلى إيصالِ رسالةٍ للقَاطِنِينَ ضِمنَ حُكمِهِ؛ بِأَنَّ هَؤُلاءِ مَن يَقُومُونَ بِالتَّفجِيرَاتِ؛ لِيكسَبَ بِذلك تَأيِيـداً شَعبِيًّاً مُسبَقَاً أو صمتاً على أقلِّ تَقدِيرٍ لِكُلّ مَا سَيَقُومُ بِهِ لَاحِقَاً، مَعَ عِلمِ الجَمِيعِ أَنَّ تِلكَ التَّفجِيرَات المُبتَذلة بِتلكَ الطَّرِيقةِ المُستَهلَكةِ، كَانَت مَفضُوحَةً لِلجَمِيع .

كَانَ مَا يَزِيدُ الأَمرَ سُخرِيَةً تَنَاوُلُ إعلَامِ النِّظَامِ لِكُلّ المُجرَيَاتِ، ابتِدَاءً مِنَ المُظَاهَرَاتِ وَخُرُوجِ أهالي حَيِّ المَيدَانِ؛ لِشُكرِ رَبِّهِم عَلَى نِعمَةِ المَطرِ، وَتِلكَ المَسرَحِيَّاتِ الهَزَلِيَّةِ الدَّامِيَةِ لِنَفسِ "الكُومبَارَس"، التي يَقومُ بِهَا النِّظَـام عندَ كُلّ تَفجِيرٍ، وَلَاسِيَّمَا أُسطُورَةُ "عُلبَةِ اللَّبن" الشَّهِيرَةِ عند كُلّ تَفجِيرٍ، وَانتِهَاءً بِهَلَوسَاتِهِ فِي وَثَائِقِيَاتِـهِ، الَّتي تَطَرَّقَ فِيهَا لأَصحَابِ القُبَّعَاتِ البِيض.

لـ فَلازالت العَلاقَاتُ الَّتي تَربُطُ دِمشَقَ بِشريَانِهَا مِن أكبرِ الهُوَاجِس لَديهِ، حيثُ بَدأَ يَعتَقِلُ بِالشُّـبهَةِ فَقَط مَن يَصمُتُ عَن قَولِ البَاطلِ ، حيث كَانَ ذلك دَيدَنُ البَعثِ مِنذُ استِلَامِ السُّلطَةِ ثمَّ أَضَافَ إليهِ قَانُون:

{فِي سُوريَّا البَعثِ تَزِرُ كُلّ وَازِرَةٍ وزرَ أُخرَى بَلْ وَ وِزرَ مَن قَبْلَها}

وَتَبدأُ بَعدَهَا سِيَاسَةُ الحِصَار تُوضَعُ فِي أروقَةِ المُخَابَرات؛ لِتَبدأ فِي بِدايَةِ شهرِ رَمضَانَ لِعَامِ ٢٠١٣ ضِمنَ حَيِّـز التَّطبِيقِ.

وَتَبدأُ فِيمَا بَعدَهَا مَرحَلَةٌ جَدِيدَةٌ أطلَقتُ عَليهَا بِالفَترَةِ الَّتي: "لَمْ يَرحَمنَا بِهَا أَحَدٌ"

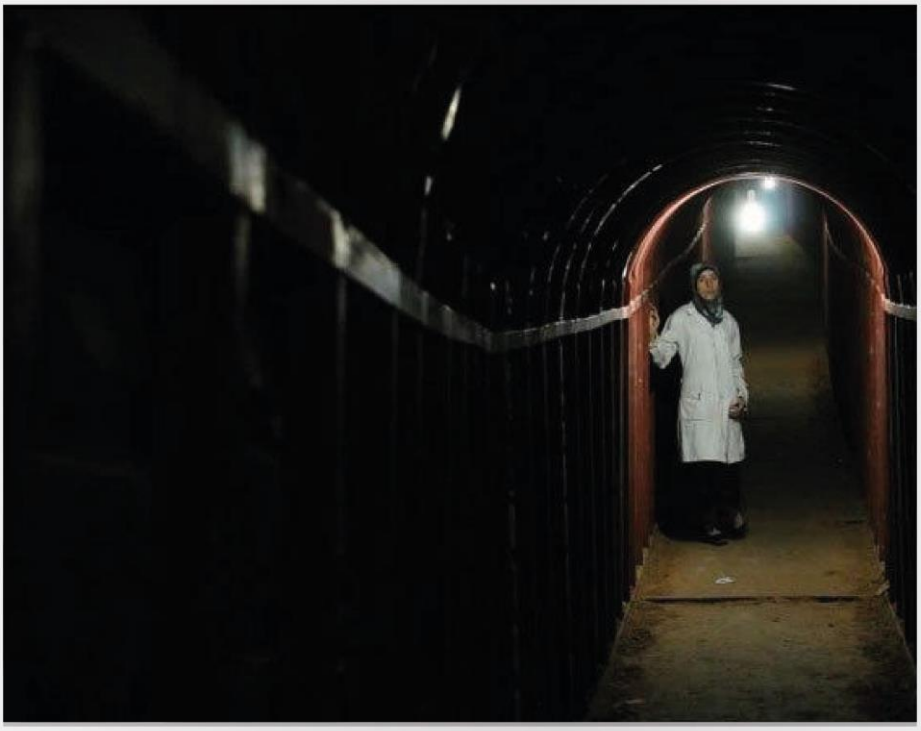

صُورَةٌ لِأَحَدِ مَشَافِي الغُوطَة الشَّرقيَّة، وَالَّذِي كَانَ يُدعَى: "مشفى الكهف"

حيثُ تَختَصِرُ الصُّورَةُ آلافَ القَصَصِ المَرويَّة

الفَصلُ الثَّاني:

لَم يَرحَمنَا أحَدٌ

كَانَت العِبارَاتُ الَّتي تَصدحُ بهَا حَناجِرُ المُتَظـاهرينَ "مَالنَـا غَيـرُكَ يَـا اللَّهُ" كَفيلـةً بِـأن نَفهَـمَ مِـن خِلالِهَا حَجمَ مَا نَنتَظِرُهُ مِمَّن ادَّعَى صَدَاقتنَا لِمَصـالِحهِ الخَاصَّـةِ، وَخَـدعنَا بِهَـا آنَـذَاك، مَـع إقـرَاري بِـأنَّ الدُّوَلَ المُجَاورَةَ لَهَا الحقُّ بالنَّظرِ إلَـى مصَـالِحهَا؛ ولَكِـنَّ كَثـرةَ المَصَـالح تَفقُـد البُوصـلَةَ فِـي كثيـرٍ مِـنَ الأحيانِ.

← بَدأت مَرحلةُ الحِصَار، والَّذي لَن أُطيلَ الحديثَ عنهُ، فَروابِطُ القَنَواتِ والتَّقَاريرِ مَليئَـةٌ بِكُـلّ مَشَـاهِدِ التَّجويعِ فِي القَرنِ الحَادِي وَالعِشرين، كَانَت سِياسَةُ التَّجويعِ لَا تَقتَصِرُ عَلَى بَلدَاتِ الغُوطَـة الشَّـرقيَّة؛ بَـل كَانَت مَنهَجِيَّةَ عَمَلٍ لِكُلّ المُحَافظَاتِ، فَكَانَت أحيَاءُ حِمصَ القَدِيمَةِ، إضَافَةً إلى مَضَايَا، ودَارَيَّا، وَالحَجَرِ الأسوَدِ، وَالمَنَاطِقِ الجَنُوبِيَّةِ لِدمَشقَ، كُلّها قَد خَضَعَت لِسيَاسَةِ التَّركِيعِ بِالجُوع.

← لَن أتطرَّقَ إلى الأُمُورِ الأساسيَّة، وَالَّتي لَا تُهدِّدُ حَيَـاةَ الإنسَـانِ بِانقطَاعِهَـا، كَـ (الكَهرُبَـاءِ وَالمَـاءِ) وَالَّذي استُعِيضَ عنهُ بِالآبَـارِ الَّتـي يَـتِمُّ حَفرُهَـا، وَإعَـادَةُ تَـدوير البَلاسـتِكِ لِمَحرُوقَـاتٍ، إضَـافةً لكُـلّ مُقَوِّمَاتِ الحَياةِ كالدَّوَاءِ وَحَليبِ الأطفَال.

← سَأكتَفِي بِالقَولِ: إنَّنَا عِشنَا مَجَاعَةً لِمُدَّةِ خَمـسِ سَـنَواتٍ بِكُـلّ مَـا تَحملـه الكلمَـةُ مِـن مَعنًـى، وَدُونَ تَهوِيلٍ لِلمَوقِفِ عَدَا تِلكَ السَّنَةِ الَّتي استَطَعنَا فِيها حفرَ نَفَقٍ إلَى دَاخِلِ دِمشقَ.

بِدَايةً كَانَ الحِصَار غَرِيبًا، لَم نَألَفـهُ مِـن قَبـلُ، لَـا نَـدري مَـا نَفعَـلُ! كَيـفَ سَـنُكمِلُ حَياتَنَـا؟ وَكيـفَ لِمَنطِقَةٍ بِهَذَا الحَجم أن تُحَاصَر؟! وَهَل حَقًّا لَـا نَسـتطيعُ إيجَـادَ طَريـقِ نجـاةٍ وَاحِـدٍ عَلَـى طُـولِ تِلـكَ المَسافَة!

لـ كَانَت خِطَّةً مَدرُوسَةً، لَا أظُنُّ أنَّهَا سُوريَّةَ المَنشَأ؛ لِأَنَّنَا نَدري كَيفَ هِيَ عَقليَّةُ الضُّبَاطِ لَدينَا .

غَالِبُ الظَّنِ أنّهُم اجتَمَعُوا فِي دَارِ النَّدوةِ الرُّوسيّ، وَأشَارَ إليهِم بِذَلكَ (شَيطَانُوفهم) مِن أحَدِ أفرُعِ المُخَـابَرَاتِ؛ لِيَتِمَّ تَطبِيقُهَا علَى المَنَاطِقِ الثَّائِرَةِ، كُلّ ذَلِكَ الحِصَار حَقيقَةً لَا يُذكَرُ أمَامَ القَصفِ الهَمَجِيِّ الَّذي كَانَ يُرَافِقُه .

لـ فجأة وَبَعدَ أقلَّ مِن شَهرينِ مِنَ الحِصَار قَرَّرَ النِّظَام أن يُنهِيَ مَلَفَّ الغُوطَة بِطَرِيقَـةٍ غَبِيَّـةٍ نَوعَـاً مَـا! لَم يَتَوقَّع صَرَاحَةً أنَّ تِلكَ الأشهُر منَ الحصار لَم تَكُن كَافِيَةً بَعدُ لِاستنزَافِ صَبرِ الشَّعب.

آب الأسود :

٢١ / ٨ / ٢٠١٣ ذلكَ التَّاريخُ الأسودُ الدَّامِي الصَّامِتُ فـي حَيـاةِ أهـلِ الغُوطَـةِ، وَتِلـكَ الوَصـمَةُ فِـي جَبينِ كُلِّ أصحَابِ اللِّحَى وَالعَمَائِمِ، الَّـذينَ يُفتُـونَ لَـهُ، وَالعَلامَـةُ الفَارِقَـةُ بـينَ مَـن كَـانَ يُبَـرِّرُ عَمَـلَ النِّظَام بِحُجَّةِ المُقَاوَمَةِ وَالمُمَانَعَـةِ، حيـث أنَّ الاحـتِلالَ الحَـديثَ يَقُـومُ عَلَـى إنشَـاءِ عَـدُوٍّ وَتَضـخِيمِه إعلَامِيًّا، وَأخذِ ضَمَانَاتٍ مِنهُ لِحمَايَةِ حُدُودِهِ؛ مُقَابلَ إبرَازِهِ بِأنَّـهُ بَطَـلٌ أمَـامَ الشُّـعُوبِ البَسِـيطَة ليَقتُلهَـا وَ يُكِمَّ أفوَاهَهَا بِحُجّة الدِّفاع عَن فُتَاتِها الذي يُقدِّمه لها مُقَابِل ذَلك.

- ✓ كَانَت تَجربَةً أمريكِيَّةً حَدِيثَةً، استَفَادَت مِنهَا خِـلالَ تَجربتِهـا السَّـابِقَة فِـي أفغَانِسـتَان، بِإنشَـاءِ قُوَّةٍ مُؤدلَجَـةٍ، وَدعمِهَـا لِمُحاربَـةِ رُوسـيَا الاتِحَادِيَّـةِ؛ إلا أن كَانَـت مليئـة بـالثَّغرَاتِ؛ إذْ أنَّهـا لَـم تَضمَن وَلائَهُـم المُطلَـق للمَصَـالح، كَمَـا ضَـمِنَت وَلاءَ حِـزبِ المُقَاوَمَـةِ وَالمُمَانَعَـةِ المُتَمَثِّـلِ بـ: (إيرَانَ)، وَ (حِزبِ اللَّهِ)، وَ(سُورِيًّا).

- ✓ **وَمِنَ الجَدِيرِ بِالذِّكرِ أنَّ**: إيرانَ الَّتي تُعَـادِي أمريكَـا ظَـاهِرَاً هِـيَ ذَاتُهَـا الَّتـي حَكَمَـت العِـراقَ عَـن طَرِيقِ المَالِكِيِّ سَابِقَاً، وَالَّذي جاءَ علَى ظهرِ الدبابَـةِ الأمريكيَّـةِ، حيـثُ مِـنَ البَـديهِيِّ ذِكـرُهُ أنَّ فِـي رَقبتِهِ بَيعَةً للمَلالِي في إيرَانَ، وَمِن ثُـمَّ دَعمَـت جَـيشَ حيـدَر العِبَـادِي، وَالمِيليشـيَاتِ الشِّـيعيَّةِ ضدَّ تَنظيمِ الدَّولَةِ؛ لِتمكِينِ حُكمِهم فِي العِرَاق.

- ✓ كُلّ تلكَ المُؤشّرَاتِ تَدلُّ أنَّ المُجتمَـعَ الـدُّوليِّ المُتَمَثِـلُ بِأميركـا لَـم يَعـد يَرغـب بـأن يَتَغيَّـرَ أيُّ مَسارٍ قَد تَمَّ وضعُه للمنطقةِ، وَخاصَّةً بتطلّعَـاتِهم لِبنَـاء شَـرقٍ أوسـطٍ جَديـدٍ، وَبالاسـتِفَادةِ مِـن وُجودِ النِّظَام الحَاليّ عَن طريـقِ القَبُـولِ بِـهِ بشـروطٍ أو زَوَالِ عَرشـهِ إن لَـم يَخضَـع لِقَبُـولِ ذَاك المَخَاضِ الجَديدِ.

وللتوضيح : أنَّ القَصفَ بالسلاح الكِيمَائيِّ لَم يَكُن قَصـفَاً عَـابِرَاً، وَمـاتَ النَّـاسُ كَمَـا يَتخيَّـلُ مَـن هُم خَـارِجَ الغُوطَـةِ، فَالنِّظَـام بَعـدَ قَصـفِه للمَنطِقَـةِ بِـثَلاثِ سَـاعَاتٍ بَـدأَ بالتَّمهِيـدِ النَّـارِيّ للمَناطِقِ، حَيثُ بَدأَ بالاقتِحَام، فَالمَدنِيُّونَ الَّـذينَ قَضَـوا تَحـتَ القَصـفِ لَـا يَقلُّـونَ عَـنِ الَّـذينَ قَضَوا نَحبَهُم باستِنشَاقِ المَوتِ.

لا أدري مِن أيـنَ جَـاءَت تِلـكَ الـرُّوحُ القِتَاليَّـةُ الشَّرسَـةُ لِلمُقَـاتِلينَ فِـي أحيـاءِ الغُوطَـةِ، فَبعـدَ آلافِ الشُّهدَاءِ وَالجَرحَى بِساعاتٍ بَدأت المَعَارِكُ، وَالَّتي كَانَت الأَشَدَّ حِينَهَا كانت ((مَعركة وجُود)) .

← استطاعَ النِّظَام أخذَ قِسمٍ مِن مَدِينَةِ جَـوبَر فَقَـط، لَـم أتوقَّـع حِينَهَـا أنَّنَـا سَـنَكُونُ أقويَـاءَ بِذَلك الشَكَل، أو أنَّنَا قَد وَصلنَا لِمَرحَلةٍ لَم يَبقَ هُنَالكَ شَيءٌ لِنحزَنَ عَليـهِ أكثَـر، فَصـمتُ العَـالَمِ عَـن مَـا حَصَلَ، وَاكتِفَائِه بَتصويرِنَا، وَذَرفِ بَعـضِ الـدُّمُوع، وَبَعـضَ عِبَـارَاتِ الاسـتِنكَارِ، كَانَـت بمثابـةِ صَـدمَةٍ لَنَا حَقِيقَةً فِي تِلكَ الفَترَةِ الَّتي لَم نُدرِك بُعدَ المُحِيطِ الَّـذي كنَّـا نَعـيشُ فِيـهِ لِبَسَـاطَتِنَا، لَـم نَتَوقَّـع صَرَاحَةً أن تَكُونَ رَدَّةُ فِعلِ المُجتمَعِ الدُّوليِّ حِينَهَا بِتلكَ البُرُودَة، حِينَهَـا أدركنَـا بَعضَـاً مِمَّـا نَحـنُ فِيـه، وَأنَّ المَصَالِحَ تَحكُمُ العَالَم وَأنَّ كُلَّ تِلكَ المَفـاهِيمِ عَـنِ الإنسَـانِيَّةِ وَحُقُـوقِ الإنسَـانِ هـيَ مُجَـرَّدُ وَهْـمٍ بَشَرِيٍّ وُضِعَ لِصَبغِ هذا العَالَمِ بِاللَّونِ الوَردِيّ.

لـ لَم تَنجح تِلكَ الحَملَةُ عَلَى الغُوطَةِ مَع كُلّ ذَلكَ التَّواطُؤِ نَظـراً لِعـدَّة عَوامِـلَ مِنهَـا أَنَّنَـا مَازِلنَـا بِذَلكَ النَّفسِ الأولِ مِـنَ الثَّـورة، بِالإِضَـافَةِ لِعَـدمِ تَـدَّخُلِ الـرُّوسِ بِشَـكلٍ فِعلـيّ علَـى الأرض، وَغَبَـاءِ النِّظَام في التَّعامُلِ مَعَ مَلفِ الغُوطَة، لِيبدأَ بَعدَهَا سِياسَـة الجُـوع أو الرُّكُـوع بِشَـكلٍ أقسَـى مِمَّـا كَـانَ عَليهِ.

اقتَصرَت العَائِلاتُ طِيلَةَ تِلكَ المُدَّةِ عَلَى شِبهِ وَجبَةٍ يَوميَّةٍ مِـن خُبـزِ الشَّـعيرِ إن وُجِـد، وَشَـيءٌ أطلَقنَـا عَليهِ مَجَازاً طَعَامَا لَا أدْري مَا هَو تَصْنِيفُهُ الغِـذَائِيّ وَلَكِـن كنَّـا نَـدعُوهُ كَـذلك، وَبَـدأتِ النَّـاسُ تَشـحَبُ وَيَتغَيَّرُ لَونُها .

كَانَ عامَ الرَّمَادةِ في الغُوطَةِ، حِينَهَـا لَـم تَكُـن لَـدينَا فِكـرَةٌ عَـن حَاجَيـاتِ الحِصَـار ، مَـع كثـرة تِلـكَ الأَرَاضِي؛ وَذلك لأنَّ الميـاهَ لَـم تَعُـد مَوجُـودَةً، وَالمَحرُوقَـاتُ قَـد فُقِـدَت، وَكُنَّـا حَـديثِي عَهـدٍ بِوَضـع الأُولَوِيَّاتِ، بدأَتِ الغُوطَةُ بِإِيجَاد الحُلولِ البَديلَةِ عَنِ المَوت، مِـن حَفـرِ آبَـارٍ، وَاسـتِخرَاج المَحرُوقَـاتِ مِـن (طَبخِ البَلاستِك) الطَرِيقَةُ الَّتي أحيَتِ الغُوطَةَ مِـن جَديـدٍ، وَالَّتـي سَـبَّبَت بِإِطَالَـةِ مُـدَّةِ الحِصَـار بِقَصـدِ التَّركيع، وَمِن ثُمَّ استبدالِ النِّظَام الكَهربَائِيِّ ذُو الـ(٢٢٠) فُولط إِلَى (١٢) فُولط!

كنَّا نَعيشُ بالحدِّ الأدنى مِنَ الحيَاةِ، أو حتَّى أقــلَّ مِــن ذَلــكَ، كَانَــت المَشَــافِي حِينَهَــا تسَــتقبِلُ الجَرحَــى وَالمَرضى وَذَوي الأمعَاءِ الخَاوِيَة، حَتى بَدأ مَرضَــى سُــوءِ التَّغذِيَــةِ بِالتَّضَــاعُفِ بِتَمثيــلِ بَيَــانِيّ مُتَصَــاعِدٍ عِندَ الصِّغَارِ وَالكِبَار سيَّان، فَالبَلَاءُ قَد عَمَّ و تَسَاوَينا بِالحِرمَان.

لـ فِي تِلكَ السَّنةِ حَاولَت الفَصائِلُ المُقَاتِلَةُ إيجَــادَ البَــدِيلِ عَــن ذَلــكَ بِفــتحِ طَرِيــقٍ للغُوطَــةِ، وَفكِّ ذَلكَ الطَّوقِ عَن جِيْــدِنَا، أذكُــرُ حِينَهَــا أنَّنــا اســتَطَعنا أن نَختَــرِقَ كُــلَّ دِفَاعَــاتِ النِّظَــام، وَنفــتَحَ طَرِيقَنَا لِمُدَّةِ سَبعَةِ أيَّامٍ فِي مَعركَةٍ سُــمِّيَت بــ: "مَعرَكــةِ اللَّهُ أعلَــى وَأجَــلُّ"، وَمِــن ثُــمَّ لِيُغلِــقَ بَابَنَــا بَعدَ ذَلكَ إلى حينِ التّهجير.!

إضافَةً إلى بَعضِ المَعَارِكِ الَّتــي كَانَــت مَفَاصِــلَ فِــي تَــدخُّلَاتٍ مُبَاشَــرةٍ، كــ: "معركــة الجبــل" لِجــيشِ الإسلَام، وَالَّذي أصبَحَ التَّدخُّلُ الرُّوسيُّ أكثرَ وُضُوحاً بَعدَهَا .

← لَستُ بِصَددِ مُنَاقَشةِ كُــلّ تِلــكَ المَعــارِكِ بِصــدقِهَا وَعَمَالَتِهَــا، وإنَّمَــا أســرُدُ الأحــدَاثَ، أُحَــاوِلُ فِيهَا أن أفهمَ مَا حَدثَ مِن خِلالِ تَرتِيبِهَا وفــقَ العَامِــلِ الزَّمَنِــيّ لَهَــا لأنَّنَــي كَمَــا الكثيــرُ، اخــتَلَطَ عَلينَــا مَفهُومَ انعِدَامِ قُدرَتِنَا عَلَى التَّحليلِ وَفَهمِ مَا يُحيطُ بِنَــا فِــي ظِــلِّ العَمَالَــةِ وَ الغَبَــاءِ الَّــذي كَــانَ أشَــدّ وَطئَاً مِنَ العَمالَةِ ذَاتِهَا .

← تَطوي سنَواتُ الحِصَار أيَّامَها حَيثُ كَانَ صَيفُهَا أقَـلَّ شِـدَّةً وَبُؤسَـاً مِـن شِـتَاءِهَا و، ذَلـكَ لِتَنـوُّع الطَّعَامِ المَزرُوع فِي أرَاضِي الغُوطَةِ، إضَـافَةً إلَـى أنَّ الشِّـتَاءَ وَالبَـردَ يَحتَـاجُ لِطَاقَـةٍ أكثَـرَ مِـن الصَّـيفِ لِتَعويضِ الحَرارَةِ ، كَانَت صُورُ الأطفَالِ الجَائِعَةِ كالأشبَاح تَملأُ مَواقِعَ التَّواصُلِ الاجتِمَاعيِّ.

لَا أدري لِمَاذَا كُنَّا نُصَوِّرُهم حِينَهَا؟ كَانَت مِهمَتُنَا فَقَط أن نُشـعِرَ العَـالَم بِـالحُزنِ وَالقَلِيـلِ مِـنَ الشُّـعُور بِالذَنبِ وَتَأنِيبِ الضَمِيرِ، لا أكثَر.

← كَانَت المُنَظَّمَاتُ الإنسانيَّةُ تَـدخُل الغُوطَـةَ، كَمَـا الـرِّيُّ بِـالتَقطِيرِ، لَـا أدري هَـل كَانَـت شَـرِيكَةَ النِّظَام بِالحِصَار، أم أنّهُم مَازَالُوا عَلَى قَنَاعَةٍ بِعَمَلِهِـم الَّـذي لَـا يَقِـي حَـرَّ الصَّـيفِ، وَلا بَـردَ الشَّـتَاءِ، وَأنَّ عَمَلَهُم فِي هَذَا العَالَم كَانَ كَذَرِّ الرَّمَـادِ فِـي العُيـونِ ، وَإقنَاعِـاً لِـبَعضِ السُـذَّج بِوُجُـودِ تِلـكَ الصِّـفَاتِ المَفقُودَةِ واقعاً وَالمَوجُودة في قَوَامِيسِ و دسـاتِيرِ المُجتمَـعِ الـدُّوليِّ مِـن مُسَـاعَدَةِ النَّـاس، وَالتَّـدَخُّلِ فِي مَنَاطِقِ النِزَاعِ الَّتِي لَم نُشَاهِدَهَا طِيلَةَ سَنَواتِ الحِصَار آنَذَاكَ.

أيُّ نِزَاعٍ ذَاكَ الَّذِي كَانَوا يَتحدَّثُونَ عَنهُ، وَالَّذي لَـم يَسـتَطِيعُوا أن يَـدخُلُوا عَلَـى نِصـفِ مِليُـونِ مُحَاصَـرٍ طِيلَةَ خَمسِ سَنواتٍ إلَّا بِعَدَدِ أصَابِعِ اليَّدِ!

كُنَّا وَحدِنَا:

← فالمالُ السّياسيّ، وَتَوجُّهاتِ مَن يَدعَمُ كَانَت تَخدُمُ مَصَـالِحَها بَعيـداً عَـن حَاجَـةِ ذَلـكَ الشَّـعب الثَّائِر، وَخَاصَّةً إذَا مَا تَعَارَضَت مَعَهُ، كُنَّا نَعلَمُ يَقينَاً بِأَنَّ ذَاكَ المَـالَ كَـذلكَ، وَكَانَـت حُجَّتُنَـا حِينَهَـا: بِـأَنَّ شَيئَاً مُؤدَلَجَاً يَسدُّ رَمقَ أَطفَالِنَا أفضَلُ مِنَ العَدم، وَلَو سَنَندَمُ عَلَيهِ بَعدَ حِين.

← وَهَذَا مَا كَانَ وَبَالاً عَلَينَا مَعَ الأَيَام، تَمنَيَّنَا لَـو جُعنَـا أكثَـرَ، وَلَـم نَسـمَح بجَعلِنَـا دُمَـىً مُتَحرِّكَـةً فَاقِدَةً للقُدرَةِ فيمَا بَعد، ليسَ عَلَى تَحديدِ المَصيرُ فَحَسـب، بَـل لَـم نَعُـد نَسـتَطِيعُ أن نَتَخِـذَ قَـراراً عَلَى مُستَوى نَوعِيَّةِ الطَّعَامِ الَّذي نُريدُ أن نَتَنَاوَلَه؛ لأَنَّ مَن أرسلَ المَالَ لا يُعجِبُه مَنظَرُه!

لـ لَم يَرحَمَنَا أَحَدٌ: حتَّى مَن استَلَم زِمامَ أمرِنَا، فَيكفِي أن تكُونَ غَبِيًّا لِكَـي تَظلِـمَ شَـعبكَ بِطَرِيقَـةٍ تُسَوِّغُهَا نَفسُك لَك بِأَنَّكَ عَلَى حَقٍّ، وَبِعبَارَاتٍ تَطرَحُهَا بِطَرِيقَةٍ غَرِيبةٍ الفَهم لِمنطِقِها الأَصلِي فَمَثَلاً كَانَـت عبارات:

"مَن لِلمُسلِمِينَ إنْ لَم نَكُن نَحنُ"، "ثَورَتُنَا مُسـتَمِرَّةٌ"، "و إنـه لجهـاد نصـر أو استشـهاد "، "مَـن اجتَهَـدَ وَأَخطَأَ لَهُ أَجرٌ"، عباراتِ بيعٍ وشراءٍ لمبادئ مثاليةٍ بثمنٍ بخسٍ .

← كَانَ اجتِزَاءُ الثَّورةِ وَتَقلِيصِهَا؛ لتَشمَلَ فِئَةً مَا، كَفِيلٌ لِتَتَنَازَلَ عَن كُلّ المَبَادِئ الَّتِي آمَنَ بِهَا الشَّعب لَا لِشيءٍ، فَقَط لِتَبقَى الأَقوَى وَالمُسيَطِر عَلَى مَمَالِكِ الكَرتُونِ تِلك .

أعلمُ أَنَّكَ قَد تُرَاوِدُكَ فِكرةٌ كَمَا كَانَت تُرَاوِدُني أَنَا سَابِقَاً؟ أَينَ الشَّعب مِن ذَلك؟ وَهَل كَانَ راضِياً عَمَّا يَفعَلُهُ هَؤُلاء؟ بِحُجَّةِ الرَّايَاتِ المُلَوَّنَةِ وَالمُزركَشَةِ بِكَلِمَاتٍ تُخفِي تَحتَ سِتَارِهَا مَطَامِعَ مَا وَرَائِيَّاتٍ لَا يَعلَمُهَا سِوَى مَن يُموِّلُهَا، نَعَم كَانَ شَعبَاً مَوجُوداً وَحَاضِرَاً، وَيَرى مَا تَقرَأُهُ أَنتَ وَاقِعَاً مَلمُوساً، وَيُرِيدُ أَن يَفعلَ مَا تُفَكّرُ أَنتَ فِيه.

← لَا أَقصُدُ بِالشَّعب ذَاكَ المَفهُومَ مِنهُ المَدنِيّينَ؛ بَل كَانَت المُعَادَلَةُ الغَرِيبَةُ حِينَذَاكَ كَالتَّالِي فَالشَّعب عِبارَةٌ عَن مِدنَيّينَ وَأَبنَاءَ هَؤلاءِ المَدنيّين الَّذِينَ حَمَلُوا السِّلَاح لِحِمَايَةِ أَهَالِيهِم مِنَ النِّظَام.

وَعَلَى الجانبِ الأَخَر أُمَرَاءُ الحَربِ وَالمَجَالِسُ الَّذِينَ يُمسكُونَ قُوتهم وَمَنَابِعُ ثَورَتِهم وَنِظَامٌ بَعثِيٌّ يُحاولُ قَتلَهُم بِشَتَّى الوَسائِلِ، تِلكَ كَانَت مِطرَقَتَا السِّندانِ حِينَهَا و الَّتِي كَانَت تَطحَنُ إِرَادَةَ هَذَا الشَّعب بِفَكِّ قُيودِ الاستعبادِ بِكُلّ مُسَمياتِها، لعلَّكَ تَستَغربُ كَيفَ لِثَائِرٍ أو مُقَاتِلٍ أن يُقَاتِلَ فِي صَفِّ مَن يُدرِكُ عَمَالَتَهُ، تِلكَ كَانَت المُعَادَلَةُ الصَّعبَةُ الَّتِي لَم أَستَطِع أن أَشرَحَهَا لأَحَدٍ عِندَمَا يَسأَلُنِي عَن حَلِّهَا، وَالَّتي بَاتَت مُستَحِيلَةَ الحَلِّ وَالاستِيعَابِ حتَّى.

- ✓ كَانَ البحرُ مِن وَرائِنَا وَمِن أَمَامِنَا، كُنّا نُـدرِكُ أَنَّنَـا غرقَـى، وَلَكِـن كُنّـا نَنتَظِـرُ حِينَهَـا مُعجِـزَةً مَـا، نَعَم وَأَنَا كُنتُ مِمَّن يَنتَظِرُ ذَلكَ، عِندَمَا تُغلَقُ الأَبوَابُ مِـن حَولِـكَ وَتَغـرَقُ فِـي غَمَـرَاتِ السَّـنَوَاتِ وَالقَصفِ وَالجُوعِ، تَضَعُ أَمَـلاً بِتلـكَ القَشَّـةِ الَّتـي فِـي يَقِينِـكَ أَنَّهَـا لَـن تَنتَشِـلكَ مِـن ذَلـكَ المُستَنقَعِ الدُّولِيِّ وَلَكن مَعَ ذَلكَ تَتَمَسَّكُ بِهَا وَحَسب، كُنّا نَحنُ كذلِكَ .

- ✓ فِي عَامِ ٢٠١٤ بَدأت تَظهَرُ سِياسَةٌ جَدِيدَةٌ للحَـربِ، فَبعـدَ أن تَنَوَّعَـت المُوَاجَهَـاتُ العَسـكَرِيَّةُ مَـعَ النِّظَام مِن استِهدَافِ حَوَاجِزِهِ إِلَـى تَطهِيـرِ المَنَـاطِقِ، وَوُصُـولاً لِتَثبِيـتِ جَبَهـاتٍ وَنُقَـاطِ تَمَـاسٍ وَالقِتَالِ وَجهاً لِوَجهٍ، بَدأت سِيَاسَةُ حَفـرِ الأَنفَـاقِ، و الالتِفَـافِ عَلَـى خُطُـوطِ النِّظَـام، وَمِـن ثُـمَّ البَدءِ بِالهُجُومِ مِـن وَرَائِـهِ، وَالَّتـي كَانَـت تُعتَبَـرُ أُسـلوباً جَدِيـداً مُتَّبَعَـاً يُوَاجِهُـهُ النِّظَـام، لَـم يَستَطِع فِي البِدَايَةِ أَن يُوقِفَهُ أو أَن يَتَعامَلَ مَعَ تِلكَ الهَجَمـاتِ عَلَـى نِقَاطِـه، فَهُـوَ فِـي نِهَايَـةِ المَطَافِ يُقاتِلُ شَعباً يَحفِرُ مِن كُلّ نُقطَةٍ، وَقَد يَخرُجُ فِي أيِّ مَكَانٍ.

كَانَ إِخمادُ تلكَ الطَّرِيقَةِ يَقَـعُ عَلَـى عَـاتِقِ الـدُّولِ الدَّاعِمَـةِ للفِصـائِلِ عَبـرَ عُمَلائِهَـا مِـن قَـادَةِ الفَصَائِلِ، فَقد تُؤَدّي هَـذِهِ الطَّرِيقَـةُ لِقلَـبِ مَـوَازِينِ المَعـارِكِ وَخَلـطِ الأَوراقِ، وَتُخـرِجُ مَنَـاطِقَ اتُّفِـقَ عَلَيهَا بِلا حُسبَان، وَلَا سِيَّمَا بِأَنَّنَا كُنّا عَلَى مَشـارِفِ سَـاحَةِ العَبَّاسـيّينَ الَّتـي تُعتَبَـرُ ثَـانِي أَهـمَّ سَـاحَةٍ فِي دِمشقَ بَعدَ سَاحَةِ الأُمَوِيِّينَ.

كَانَ الاستعبادُ الجَديدُ يَتَمَثَّلُ بِشراءِ فُوَّهَاتِ البَنَـادِقِ، كَمَـا تَـمَّ شِـرَاءُ رُؤَسَـاءِ العَـربِ مِـن قَـبلِهم، مُستَغِلِّينَ حَاجَةَ الشَّعبِ وَعَجزِهِ أمامَ إجرَامِ النِّظَام، كُنّـا فِعلَـاً كَمَـا الأيتَـامِ عَلَـى مَوائِـدِ اللئَـامِ، وَلَكـن دَائِمَاً مَا تَطِيشُ كَفَّةُ القُوَّادِ فِي هَـذِهِ الثَّـورَةِ إذَا مَـا قُوبِلَـت بِظُلـمِ النِّظَـام وَجَبَرُوتِـهِ، وَهَـذَا مَـا كَـانَ يَجعَلُنَا نَسكتُ عَن فِكرَةِ زَعزَعَةِ أمنِ المُزَعزَع أصلاً !

منَ الصَّعبِ جِداً شَرحُ كُلّ تلكَ التَّعقِيـدَاتِ المُجتَمَعيَّـةِ وَالتَّوَازُنَـاتِ غَيـرِ المنطقيـة، لأنَّـهُ أحيَانَـاً تَجِدُ جُزءَاً مِنَ التَّارِيخ غَيرَ مَفهُومٍ حِينَمَا تَقرَأُهُ، هَـذَا مَـا أقصِـدُهُ بِالضَّـبطِ؛ لأنَّ مَـن يَـروِي التَّـاريخَ فِـي الأصلِ لَا يَكُونُ مُدرِكَاً لِكُلّ مَا يُحيطُ بِه مِن أحـدَاثٍ بِشـكلٍ تَـامٍّ، وَلا يَسـتَطِيعُ نَقـلَ كُـلّ تِلـكَ الأحـدَاثِ مَعَ كُلّ تِلكَ المَشَاعِرِ، وَلَا سِيَّمَا فِي قَضِيَّتِنَا المُعَقَّدةِ.

← الغَريبُ فِي الأمرِ أنَّا كُنّا نُدرِكُ حِينَهَا حَقِيقَةَ عَيشِـنَا ضِـمنَ هَـذِهِ التَّعقِيـدَاتِ الدُّوليِّـةِ، وَأنَّنَـا سَنصبِحُ يَومَاً مَا ضَحِيَّةً لِتلكَ التَّجَاذُبَاتِ الدُّوليِّةِ، وَلَكن مَا زِلـتُ لَـا أدري كَيـفَ كُنّـا نَختَلِـقُ الأمَـلَ حِينَهَـا، وَكَيفَ كُنّا نَمضِي طَرِيقَنَا قُدُمَاً نَحوَ هَـدَفِنَا البَسـيطِ، وَالَّـذي أصـبحَ أكثـرَ تَعقِيـداً فِيمَـا بَعـد، أكثـرَ تَعقِيدٍ مِمَّا كُنّا نَظَنُّ حَتَّى أكثرَ مِمَّا كَانَ مَرسُوماً لَهُ بِالنِّسبَةِ للدُولِ المُتَحَكِّمَـةِ، نَعلـمُ أنَّنَـا مَـا زِلنَـا تَحـتَ السَيطَرَةِ، وَلَكن لَا أظُنُّ عَلَى الأقلِّ ((مِـن وُجهَـةِ نَظَـري)) أنّهُـم قَـد أحكَمُـوا السَّـيطَرةَ كَمَـا يَزعُمُـونَ، فَحَجمُ الوَعي الَّذي نَشأَ لِعَددٍ لَـا يُسـتهانُ بِـهِ لِمَـن هُـم دَاخِـلَ اللُّعبَـةِ يُمكِـنُ أن يَصـنَعَ فَارِقَـاً فِـي المُستَقبَل وهَذا عَزائي بَعدَ كُلِّ الذي حَصَل .

لـ مـنَ الإجحَـافِ أن نُلقِـي تُهمَـةَ العَمَالَـةِ بِـالعُمُومِ، وَنُطلِقُهَـا جُزَافَـاً بِلَـا أيّ دَلِيـلٍ مَلمُـوسٍ، فَالعَمَالةُ كمَا قِيـلَ سَـابِقَا يَكفِـي لِتَطبِيقِهَـا أن تَكـونَ غَبيَّـاً، وهـيَ (أي العمالـة) لَيسـت شَـرطَاً لأن تَخسرَ الحَربَ فالأغبِيَّاءُ أكثَرُ عَدَدَاً مِنَ العُمَلَاء بِطَبِيعَةِ الحَالِ .

لَا أُلقِي اللَّومَ بِذَلِكَ عَلَى الدُّولِ الَّتي لهَا مَصالحٌ فِي المِنطَقَة بِقَدرِ مَـا أُلقِيـهِ عَلَـى مَـن سَـمحَ لَهُـم عَـن حُسنِ نِيَّةٍ وَبَساطَةٍ مِنهُ أو عَن عَمَالةٍ وَخَبَاثةٍ مُستَغِلِّينَ بَسَاطَةَ الشَّعبِ وَحَاجَتَه و عَجْزَ الثِّقَةِ .

غَالِبَاً مَا أعـزُو الأمـرَ إِلَـى دَرَجَـةِ البَسَـاطَةِ الَّتـي كُنّـا نَعِيشُـهَا، وَغِيَـابِ لَـيسَ الـوَعِي السِّياسـيِّ فَحسبْ؛ بَل الوَعي شِبهِ الكَامِلِ، فَلَـم نَـعِ التَّـدَاعِيَاتِ الاقتِصَـادِيَّةِ المُتَمَثِلَـةِ فِـي الـدّعمِ، وَالتَّجَاذُبَـاتِ السِّيَاسِيَّةِ، وَتَقييمِ الحُلَفَاءِ الاستِرَاتِيجِيينَ، وَتَقدِيرِ المَصَالِحِ المُشتَرَكَة.

كُلُّ تلكَ المَفاهِيم كَانَت مُغَيَّبَةً عَنَّا لعَشَرَاتِ السِّنِين ، حيث كَانَـت تُقلِـقُ الأمـنَ القَـوميِّ لِنظَـامِ الأسـدِ ، فَلَا نُلَامُ عَلَى ذَلكَ إِلَى حَدٍّ مَا؛ لأَنَّهَا كانَت نَتِيجَةً لِمُقَدِّمَةٍ مَعلُومَةٍ بِالضَّرُورَةِ أنَّا سَنَصِيرُ إِلَيهَا.

← لَم يَقتَصِرِ الأمرُ عَلَى الجَانِبِ العَسكَرِيّ كَمَـا هُـوَ مَعلُـومٌ؛ بَـل انتَشَـرت عَـدوَى الـدَّاعِمِ لتَشـمَلَ كُلَّ قِطَاعَاتِ الثَّورَةِ بِصُنُوفِهَا المُتَنَوِّعَةِ، طَبَعَاً لَـا أنفِـي وُجُـودَ المُحَـافِظِينَ عَلَـى الثَّوَابِـتِ الَّتـي قَـامَ لِأَجلِهَا الشَّعبُ مِن حُرِّيَّةٍ وَكَرَامَةٍ، وَلَكِن عِندَمَا لَا تُقَيِّم المَـرضَ فِـي مَرَاحِلِـهِ المُبَكِّـرَةِ قَـد يَصِـلُ لِمَرحَلَـةِ اللَّاعَودَةِ، كَمَا هُوَ مَعلُومٌ عِندَ أهلِ الاختِصَاصِ فِي هَـذَا المَجَـال، وَاللَّـاعَودَةُ فِـي مَفهُـومِ الثَّـورَةِ تَعنِـي إِحدَى الخَيَارَينِ: إِمَّا [المُصَالَحَةُ] أو [التَّهجِيرُ].

لـ كُلُّ نِدَاءَاتِنَا لَم تُجدِ نَفعَاً، وَكُلُّ تِلـك التَّقَـارِيرِ المُصَـوَّرَةِ، وَالتَّوثِيقَـاتِ المُدَوَّنَـةِ فِـي السِّـجلَّاتِ لَم تَأتِ بِنَتِيجَةٍ، كَانَ الحَلَّ الوَحيدَ أن نَجِدَ طَرِيقَنَـا، وَذلـكَ بِالاسـتِفَادَةِ مِـن تَجرِبَـةِ الأَنفَـاقِ، وَهَـذَا مَـا بَدأَ بِشَكلٍ جِدِّيٍّ بَعدَ أن خَاضَ أهلُ حَرَستَا أوَّلَ تَجرِبَةٍ بِـ: فتح نَفَـقٍ يَصِـلُ بَـينَ قِسـمَيّ حَرسـتَا؛ بَـينَ قِسمَهَا شَرقِيٍّ الأوتُوستَراد والَّتـي كَانَـت مُنضَـوِيَةً تَحـتَ الغُوطَـةِ، وَبَـينَ قِسـمِهَا غَربِـيٍّ الأُوتوسـتَرَادِ المُهَادِنِ للنِّظَامِ ،حَيثُ كَانَت أوَّلَ تَجرِبَةٍ لِنَفَـقٍ يُنقَـلُ بِـهِ بَضَـائِعُ للمَـدَنِيِّينَ وَالعَسـكَرِيِّينَ، وَمِـن ثُـمَّ تَتبَعُهَا أنفَاقُ عِربِينَ، وَالَّتي تَصِلُ إِلَى حَيِّ القَابُونِ الدِّمشـقِيَّ، حَيـثُ كَانَـت ثَلَاثَـةَ أنفَـاقٍ: اثنَـانِ مِنهَـا مُخَصَّصٌ لِلمُشَاةِ، وَالثَّالِثُ ضَخمٌ مُخَصَّصٌ للسَّيَّارَاتِ، وَلَا أدري هل كَانُوا أكثَرَ مِن ذلك .

كان يَتَرَاوَحُ طُولُ النَّفقِ بَينَ الكِيلُومِتِرِ الواحد إِلَى ٢ كيلُـو مِتـر، حَيـثُ تُتَّبَـعُ طَرِيقَـةُ الحَفـرِ اليَدَوِيَّـةِ، وَذَلكَ لانعِـدَام المَحرُوقَـاتِ وَالكَهرُبَـاءِ وَالأَدَوَاتِ، كَانَـت وَرَشُ الحَفـرِ تَعمَـلُ لَيـلَ نَهَـارٍ بُقُـوتِ يَومِهَـا، كَانَت تُجَهِزُ الأَنفَاقَ بِدَعَائِمَ وَإِنَارَةٍ وَفُتحِ تَهوِيَةٍ ، كنا نَحفِرُ مِئَـاتِ الأَمتَـارِ تَحـتَ نُقَـاطِ الجَـيشِ للوصُـولِ لِمَناطِقِ المُصَالحَات.

← شَهِدَت الغُوطَةُ في تلك الأيام انتِعَاشَاً اقتِصَـادِيًّا بَسِـيطَاً، فَانخَفَضَـتِ الأسـعَارُ حَتَّـى وَصَـلت بَعضُ السِّلَع فِي الانخِفَاضِ لأكثرَ مِن مِئَةِ ضِعفٍ كَالسُّكَرِ وَالطَّحِين.

← بَدأت تَظهَرُ بَعضُ مَلامِحِ كَسرِ الحِصَارِ عَلَى وُجُـوهِ النَّـاسِ الَّتـي لَـا تعـرفُ حَتَّـى هَـذِهِ اللَّحظَـةِ كَيفَ كَانَت تُؤَمّنُ طَعَامَهَا أو فُتَاتَهَا أو مَا يُسَـدُّ بِـه رَمَـقُ أطفَالِهَـا حِينَـذَاك، فَـالأمرُ حِينَهَـا كَـانَ أشـبَهَ بِمُعَادَلَـة "غَيـرَ مُعَرَّفَـةٍ" إذَا مَـا وُضِـعَت عَلَـى القَـوَانِينِ الرِّيَاضِـيَّةِ، هِـيَ المَسـأَلَةُ الَّتـي أكمَلنَاهَـا بِاستِحَالَتِهَا، فَلَا زِلنَا عَلَى قَيدِ الحَيَاةِ بَعدَ كُلّ ذَلك!

بَدأَت تِجَارَةُ الأنفَاقِ تَطفُو عَلَى السَّاحَةِ بِشكلٍ مُتَسَـارِعٍ بِـالتَّزَامُنِ مَـعَ النِّـزَاعِ الفَصَـائِلِيِّ للـتَّحَكُمِ بِتلكَ الأنفَاقِ، إلَّا أنَّهُ وَبِـالرُّغمِ مِـن دَنَـاءَةِ أُولئِـكَ المُسـتَفِيدينَ فِـي أوقَـاتِ الحُـروبِ كانـت الأوَضَـاعُ أفضلَ مِن ذِي قَبل ((على بُؤسِهِ الذي كَانَ))، كَثيراً مَاكُنـتُ أمقُـتُ تِلـكَ المُقَارنَـةَ بَـينَ السَّـيءِ وَالأسـوَأ، وَلَكِن تِلك هيَ سُنَّةُ الإجبَارِ ، كُنّا مُرغَمِينَ عَلَى القَبُولِ وَلَـيسَ الرِّضَـى، كُنّـا حِينَهَـا نَـرى النُّـورَ مِـن أخـرِ النَّفَقِ وَالَّذي أطلَقُوا عَلَيه فِعلاً فِيمَا بَعدُ اسمَ: "نَفَقِ النُّورِ"!

فِي كُلّ حَربٍ أو نِزَاعٍ أو مَخمَصَةٍ يَجتَاحُ النُّفُوسَ وَبَاءُ الطَّمَـعِ وَأطبَـاعُ قَـانُونِ الغَـابِ فِـي البَقَـاء، وَهَـذَا شيء فطريٌّ صَرَاحَةً بَعدَ أن نَفهَمَ مَاهِيَّةَ البَشَـرِيَّةِ وَمَعنَـى الوجُـودِ لَـيسَ تَبريـراً لَـهُ و إنَّمـا تَوصِـيفٌ لِحَالَةٍ بَشَرِيِّة .

← دَامَ شَهرُ عَسَلِنَا المَغشُوشِ مَا يُقَارِبُ السَّنَةَ وَبِضعَةَ أَشـهُرٍ، لَـا أَذكُـرُ كَـم اسـتَمَرَّ بِالضَّـبطِ، فَلَـم أَكُن يَومَاً دَاخِلَ الغُوطَةِ بِكَامِلِ وَعيِي، فَتَسارُعُ الأَحدَاثِ كَانَ أَسرَعَ مِن استِيعَابِي لَهَا..

كَانَت الأَنفَاقُ مَربُوطَةً بِاتِّفَاقِيَّةِ الهُدنَةِ القَائِمَـةِ بَـينَ بَـرزَةَ والقَـابُون مِـن جِهَـةٍ وَالنِّظَـام مِـن جِهَـةٍ أُخرَى، فَكلُّ نَقضٍ لِلهُدنَةِ يَتوقَفُ النَّفَقُ عَـن ضَـخِّ الحَيَـاةِ لِلغُوطَـةِ، كَانَـت أَشـبَهَ بِوَصَـلَةٍ شِـرِيَانِيَّةٍ لِعُضوٍ يُحَاوِلُ الحَيَاةَ بِمَا تَبقَى بِهِ مِن رَمَق.

كَانَت نَوعِيَّةُ الفَصَائِلِ فِي بَرزَةَ مُغَايِرَةً تَمَامَـاً عَمَّـا كَانَـت عَلَيـهِ قَبـلَ المُهَادَنَـةِ، فَقَـد أَضـحَت أَشـبَهَ بِذرَاعٍ لِلنِّظَامِ دَاخِلَ الثَّورَةِ فِي الغُوطَةِ إِنْ صَحَّ التَّعبِيرُ.

وَهَذَا مَا حَصَلَ فِي أَكثَرِ مِن مِفصَلٍ مِـن حَيَـاةِ الثَّـورَةِ فِـي الغُوطَـةِ الشَّـرقِيَّة، وَلَـا سِـيَّمَا فِـي تَسـلِيمِ المَنطِقَةِ فِيمَا بَعدُ بِتُهَمٍ كُلّنَا كُنّا نَعلَمُهَا مُسبَقَاً .

كَانَ النِّظَام عَلَى دِرَايَةٍ بِتِلكَ الأَنفَـاقِ، وَكَـانَ يُحَـاوِلُ إِيجَادَهَـا حَتَّـى وَجَـدَ بَعضَـاً مِنهَـا، وَلَـم يَسـتَطِع إِيجَادَ البَاقِي إِلَّا بَعدَ أَن هَدَّمَ حيَّ القَابُون فَوقَ أَهلِهَا وَمِن ثُمَّ احتَـلَّ تِلـكَ المَدِينَـةَ الخَاوِيَـةَ بَعـدَ أَشـهُرٍ مِن حِصَارِهَا، وَقَصفِهَا، لَم يَستَطِع دُخولَهَا عُنوةً ؛ بَل دَخَلَهَا بعد كل ذلك بِالمُفَاوَضَاتِ!

بِذَلِكَ انقطَعَ الحَبلُ السِّرِيُّ لِلغُوطَةِ، وَعَادَت لِلحِصَارِ الثَّانِي وَالَّـذي سَـيَكُونُ مِـن نَصـيبِ الفَصـلِ الثَّالِـثِ مِن هَذَا الكِتَاب.

التَّوزيعُ الجُغْرَافِيُّ لِلقطَّاعَاتِ فِي "الغُوطَةِ الشَّرقيَّةِ" خِلالَ الحِصَارِ الثَّانِي.

الفَصلُ الثالث:

ضَاعَتْ بُوصَلَتُنَا

فِي هَذَا الفَصلِ سَأُلقِي الضَّوءَ عَلَى فَترةٍ خَبَت فِيهَا جَـذوَةُ الثَّـورَةِ فِـي كَثيـرٍ مِـنَ النُّفُـوسِ الَّتـي لَطَالَمَا حَلُمَت بِإزَاحَةِ هَذَا النِّظَام عَن صَدرِ هَذَا البَلَـدِ العَرِيـقِ، الَّـذي يُقَدِّسُـهُ كُـلُّ مَـن حَولَـهُ لِمَكَانَتـهِ الدِّينِيَّةِ وَالتَّارِيخِيَّةِ.

هَذَا النِّظَامُ الَّذي حكَمَ نِصفَ قَرنٍ، قَامَ بِتقزِيمِ حَجمِ هذا الشَّعبِ حتَّـى لَـم يَكَـد يَصِـلُ إِلَـى أدنَـى مُستَوىً لأيِّ حَياةٍ يَتَمَتَّعُ بِهَا أيُّ مَخلُوقٍ، فَحَتَّـى البَهـائِمِ عنـدَمَا تَجُـوعُ يَعلُـو صَـوتُهَا، وَعنـدَمَا تَتَعَـب تَرتَاح مِن غَيرِ أيِّ التِفَاتٍ لِمَن يَقُودُهَا، كَانَ الخَوفُ يَأكُلُنَا، يَقضِمُ مَشَاعِرِ الكَرَامَةِ فِي أبَاءِنَا.

تَذَيَّلنَا قَوَائِمَ الإنتَاج، وَتَصَدَّرنَا قَـوائِمَ الاسـتِهلاكِ، وَهَـذَا إن اعتَبرنَـا أنَّ المَـوادَ الَّتـي يُـدخِلُهَا صَـالِحَةً للاستهلاك بِالأَصلِ أم كَانَت للإِتلَافِ ، كُلّ ذَلكَ كَانَ كفِيلاً بِأن نَخـرُجَ بِثَـورَةٍ نَقلِـبُ فِيهَـا كُـلَّ الطَّـاوِلاتِ، وَأوراقِ اللَّعبِ، نَخرُجَ عَلَـى كُـلّ عَرَّابِـيّ الشُّـعوبِ، وَأصـحَابِ البَـواكِرِ المُقَـامِرِينَ علَـى انعـدَامِ شُـعورِ الحُرِّيَّةِ فِي نُفُوسِ هَذَا الشَّعب الجَبَّار.

أعلمُ أنَّ هَذِهِ الوُرَيقَاتِ لَا تَكفِي لِتَستَوعِبَ الأَحدَاثَ، وَلَكِنِّي أقفُ عنـدَ نُقَـاطٍ مُعَيَّنَـةٍ، قَـد كَـانَ لَهَـا أثَرٌ فِي تَحوُّلاتِ خَطِّ الثَّورَةِ، فَمُرورِي عَلَى بعضِ مِـن الأَحـدَاثِ بِتلـكَ السُّـرعَةِ لَـا يَعنِـي أنَّهَـا ثَانَوِيَّـةٌ أو مَا شَابَهَ ذَلكَ بَل لَا تَتَّسِعُ الصَفَحَاتُ للتوَسُّع أكثرَ مِن ذَلك.

لَم تَعُد تَعنِينَا العِبَارَاتُ البَرَّاقَةُ، الَّتي بَاتَ يَرفَعُهَا أيُّ طَـرَفٍ إذَا اسـتَثنَينَا طَـرفَ النِّظَـام؛ كَونَـهُ الطَّـرَفُ الَّـذي يَسـتَخدِمُهُ البَـاقِي لِتَحقِيـقِ مَكَاسِـبِهم، وَذَلـكَ بِامتِطَـاءِ الشَّـعبِ، وَاتِّخَـاذِهِ وَسِـيلَةً لِتَمرِيـرِ الاتفَاقِيَّاتِ وَالتَّوازُنَاتِ بِالمِنطَقَةِ، وَرُكُوبِ مَوجَةِ التَّغيِيرِ الَّتي بَدأَهَا هَذَا الشَّعبُ.

كُنّا حَتَّى تِلكَ اللَّحظَةِ نُقَاوِمُ تَحـتَ أيّ مُسـمًّى ضِـدَّ ذَلـكَ النِّظَـامِ إلَـى أن دَخلْنَـا مَرحَلَـةَ عَـدَمِ الثِّقَـةِ المُطلَقَةِ بِأيّ أحَدٍ، وَتَرجِيحِ كَفَّةِ الجُلُوسِ وَالاعتِزَالِ، وَعَـدَمِ قِتَـالِ النِّظَـامِ عَلَـى كَفَّـةِ القِتَـالِ تَحـتَ أيّ مُسمًّى.

زَالَ مَع الوقتِ ذَلكَ الشُّعورُ بِالفَخرِ عِندَ نَسبِ أحَدِنا للطَّـرَفِ المُقَـاوِمِ للنِّظَـامِ لَـيسَ حُبًّـاً بِالنِّظَـامِ فهُوَ أبعَدُ مَا يَكُونُ لِلوُقُوفِ فِي طَرَفِه يَومًا، بَل لِنُفُـورِهم مِـن أجنـدَاتِ الـدَّاخِلِ الَّتـي طَغَـت أهـدَافُهَا عَلَى الهَدَفِ الرَّئِيسِيِّ، وَهُوَ إسقَاطُ النِّظَامِ، وَإيجَادِ نِظَامٍ بَـدِيلٍ يَـنهَضُ فِـي هَـذَا البَلَـدِ الَّـذي عَـانَى مَـا عَانَى مِن حُكمِ الاستِعبَادِ البَعثِيِّ.

أذكُرُ حِينَهَا أنَّ عَدَدَ الَّذينَ ابتَعَدُوا عن صُفُوفِ الثَّـورَةِ، وَاختَـارُوا الجُلُـوسَ فِـي بُيـوتِهم، قَـد ازدَادَ مَعَ ازدِيادِ ظُهُورِ تِلكَ الفِئَـةِ "المَنحَبَكِجِيَّـةِ" الجَدِيـدَةِ فِـي عَهـدِ الثَّـورَةِ. الَّـذينَ يَسـتَخدِمُونَ شِـعَارَاتِ الحُرِّيَّةِ للاستِعبَادِ الجَدِيدِ، لَم أكُن حِينَهَا أُصَدِّقُ أنَّ مَن خَـرَجَ عَلَـى "المَنحَبَكِجِيَّـةِ" يَومًـاً أن يُصـبِحَ ذَيلًـاً لِفُتَاتٍ آخَرَ، كُنتُ مُخطِئًا آنذاك، كُنتُ أظنُّ أنَّ الجَمِيـعَ قَـد خَـرجَ ضِـدَّ النِّظَـامِ لِلسَّـبَبِ ذَاتِـهِ، وَهَـذَا مَـا اتَّضَحَ فيمَا بَعد، وَلَازَالتِ الأيَّامُ تَكشِفُ لَنَا عوراتً مَعَ ذيولِ .

قُسِّمَتِ الغُوطَةُ لِقِطَّاعَاتٍ، لَا تَستَطِيعُ تَصـدِيقَ حَجـمِ مَـا قَبِـلَ بِـهِ هَؤُلَـاءِ كَـي يَحكمُـوهُ، فَقَـط لِكَي يُنَفِّذُوا مَطَالِبَ مَن يُجَنِّدُهُم ،وَيَنتَشُوا بِشُعُورِ السُّلَطَةِ الوَهمِيِّ ذَاكَ .

كَانَ الاقتِتَالُ الأَوَّلُ هُوَ نَتِيجَةً لِتلكَ المَنَـاهِجِ، وَالتَّبَعِيَّـاتِ، وَكَـانَ لَـا بُـدَّ مِـن خَلفِيَّـةٍ دِينِيَّـةٍ تُشَـرعِنُ الأَمرَ، فَهِيَ تَستَنِدُ عَلَى مَفهُومِ التَّغلُبِ الَّذي يَقُومُ عَلَـى فِكـرَةِ: "أَنَـا الحَـقُّ وَ غَيـرِي لا مَحَالَـة بَاطِـلُ"، وَلأَنَّهَا اقتِتَالَاتٌ تَتَبَعُ شَرعاً وَاحِداً وَ لَكِن تَختَلِفُ بِالمَنهَجِ، فَكَـانَ لَـا بُـدَّ مِـن ذَلِـك، إِلَّـا أَنَّ الَّـذي اتَّضَـحَ لِلنَّاسِ بَعدَهَا أنها لَم تَكُن كَذَلِك، كَانَتِ المَصَالِحُ فَـوقَ الـدِّينِ وَفَـوقَ الجَمِيـعِ وَفَـوقَ الثَّـورةِ وَفَـوقَ أيِّ اعتِبَارٍ يُؤخَذُ بِالحُسبَانِ.

فَاتِّحَادُ هَيئَةِ تَحرِيرِ الشَّامِ مَـعَ فَيلَـقِ الـرَّحمَنِ مَـثَلاً ضِـدَّ جَـيشِ الإِسـلَامِ، كَـانَ أَكبَـرَ دَلِيـلٍ عَلَـى أَنَّ المَصَالِحَ تَعلُو وَلَا يَعلُو عَلَيهَا شَيءٌ، ثُـمَّ مَـا لَبِـثَ أَن حَـدَثَ بَعـدَ اصـطِدَامِ المَصَـالِحِ اصـطِدَامٌ فِكـرِيٌّ، وَمِن ثُمَّ أَعقَبَهُ حَربٌ لَم يُعرَف فِيهَا مَن يَقتِـلُ فِيمَـا يَقتِـلُ؟ وَلِمَـاذَا يُقتَـلُ، وَفِـي صَـالِحِ مَـن يَصِـبُّ ذَلِكَ؟

تَهَاوَشُوا عَلَى الصَّيدَةِ فِي الخَارِجِ، فَتَهَاوَشَـت عَلَينَـا وُحُوشُـهم فِـي الـدَّاخِلِ، كُـلّ تِلـكَ الأَحـدَاثِ الَّتـي كَانَت تَحصَلُ هِيَ انعِكَاسَاتٌ دُوَلِيَّةٌ نُنَفِذُهَا عَلَى أَنفُسِنَا بِدَعوَى الحَاجَةِ وَالثَّورَةِ.

فِي حِينِ أَنَّ النِّظَامَ لَم يَتَوقَّف عَنِ القَصـفِ أَوِ التَّقَـدُمِ، فَفِـي الاقتِتَـالِ الأَوَّلِ اسـتَرجَعَ النِّظَـامُ القِطَـاعَ الجَنُوبِيَّ مِـن ("زَبـدِينَ" وَ" دَيـرِ العَصَـافِيرِ" وَ...)، وَفِـي الاقتِتَـالِ الثَّـانِي أَخـذَ النِّظَـامُ "حَـيَّ بَـرزَةَ" وَ "القَابُونَ".

← لَا يَعنِينِي أَبَداً مَن بَدأَ، وَلَا تَعنِينِي المُفـرَدَاتُ الَّتـي تَـمَّ صَـبغُ بَعضِـهم بِهَـا؛ إِلَّـا أَنَّهَـا كَانَـت حَقِيقَةً بِالنِّسبَةِ لِي، فَكُلّ الأَطرَافِ بَغَت عَلَى الثَّورَةِ بِحُجَّـةِ حِمَايَتِهَـا، ﴿وَهُـمْ يَحْسَـبُونَ أَنَّهُـم يُحْسِـنُونَ صُنْعًا﴾، وَلَا زَالُوا لِلأَسَف.

← أَظُنُّهَا كَانَتِ القَشَّةَ الَّتي قَسَمَت ظَهرَ البَعِيـرِ لِمَـن كَـانَ يَـرَى نُـوراً يُشِـعُّ مِـن نَاحِيَـةِ دِمشَـقَ، فَالانقِسَـامُ تَعَـدَّى مَرحَلَـةَ الانقِسَـامِ المَنهَجِـيِّ وَالفَصَـائِلِيِّ، وَبَـدأَ يَظهَـرُ ضِـمنَ القَـاطِنِينَ وَسَـطَ المَنَاطِقِ، والَّتي كَانَت القَاضِيَةَ مِن (وُجهَةِ نَظَرِي) صَـرَاحَةً، فَبِـتُّ أَسـمَعُ بَعـضَ المُفـرَدَاتِ الَّتـي لَطَالَمَـا حَلُمَ النِّظَامُ بِزِرَاعَتِهَا، وَلَم يَنجَح، وَلَكِـن نَجَـحَ هَؤُلَـاءِ بِزِرَاعَتِهَـا بِطَرِيقَـةٍ غَرِيبَـةٍ، بِمُسَـاعَدَةِ أَحبَـارِهِم الَّذِينَ يُسَوِّلُونَ لَهُم سُوءَ أَعمَالِهِم.

مَا فَائِدَةُ البِدَايَاتِ إِن لَم تَكُن نِهَايَتُهَا أَشـبَهَ بِبِـدَايَتِهَا ، إِن لَـم يَكُـن فِـي الشَّـكلِ الظَّـاهِرِيّ، فَأَقَـلُّ مَـا يُمكِنُ أَن تُحَافِظَ عَلَيهِ بِالمَضمُونِ.

تَنَامَت مَعَ الأَيَّامِ وَتَسَلَّطَت تِلكَ الفِئَـاتُ المُؤَدلَجَـةُ أَو إِن صَـحَّ التَّعبِيـرُ [القَاصِـرَةُ عَـن إِنشَـاءِ أَي نِظَـامٍ حَاكِمٍ يُمكِنُ لَهُ أَن يَقُودَ تِلكَ البَلدَ إِلَى النَّهضَةِ أَو أَن يَنتَشِلَها مِنَ القَاعِ عَلَى أَقَلِ تَقدِير].

كَانَت تَصدِمُنِي بَعضُ الأَخبَـارِ مِـنَ المُؤَسَّسَـاتِ المَدَنِيَّـةِ العَامِلَـةِ مِـن خِـلَالِ إِقصَـاءِ مَـن لَـا يَنتَمِـي لأَفكَارِهِم، وَذَلِكَ بِحُجَجٍ وَاهِيَةٍ تُمَثِّـلُ حَجـمَ إِمكَانِيَّـاتِهِم الفِكرِيَّـةِ الَّتـي تَكَـادُ أَن تَكُـونَ مَعدُومَـةً مِـن شِدَّةِ ضِيقِهَا.

← لَا أتعَمَّدُ أبداً فِي هَذَا الفَصلِ أن أجلِدَ ذَوَاتِنَا لِدَرَجَةِ اليَأسِ، بِقَـدرِ مَـا أُرِيـدُ أن أُلقِـي الضَّـوءَ عَلَـى الأسبَابِ الحَقِيقِيَّةِ الَّتـي أوصَـلَتنَا إِلَـى تِلـكَ النَّتِيجَـةِ، وَالَّتـي كُنَّـا شُـرَكَاءَ حَقِيقِـيِّنَ لِمُحَاوَلَـاتِ الـدُّولِ لِلسَّيطَرَةِ عَلينَا، وَجَعلِنَا كَـالدُّمَى.

ذَلكَ الوَعيُ المُتَدَنِي أنجَبَ تِلـكَ العَقلِيَّـاتِ المُعَاقَـةِ الَّتِـي جَلَـدتِ الثَّـورَةَ بِأفكَارِهَـا حَـدَّاً وَكُفـرَاً بِهَـا، وَالَّتِي ظَنَّت أنَّ المُعجِزَةَ السَّمَاوِيَّةَ سَتُؤَيِّدُهَا؛ لأنَّهَا عَلَى الحَـقِّ الَّتِـي تَدَّعِيـهِ كُـلُّ فِئَـةٍ، وَتُسَـلّي نَفسَـهَا بِآيَاتٍ قُرآنِيَّةٍ تَنتَقِيهَا وِفقَاً لِأفكَارِهَا، وَتُؤَوِّلُهَا طِبقَاً لِمَنهَجِهَا وهَوَاهَا.

فالكُلُّ يَدَّعِي وَصلاً بِلَيلَى، وَلَيلَى مِـنهُم بَـرَاءُ، كَمَـا عِبَـارَةُ:[وَاللَّهُ مِـن وَرَاءِ القَصـدِ] الَّتـي كَانَـت تَتَـذَيَّلُ بَيَانَاتِهم فِي حِين يَسبِقُهَا كَلمَاتٌ تُحَلِّلُ سَبيَ لَيلَى.

بَعدَ الإقتِتَالِ الثَّانِي بَدَت مَلامِحُ الغُوطَةِ فِي ثَلاثَةِ أقسَامٍ رَئِيسةٍ:

- القِطَاع الشِمَالِيّ المُتَمَثِّلِ بـ: دُومَا، وَمَا حَولَهَا.
- وَالقِطَاع الأوسَطِ المُتَمثِّلِ بـ: عِربِينَ وَمَا حَولَهَا.
- وَقِطَاع حَرستَا.

سَقَطتِ القَابُونُ بَعدَ الإقتِتَالِ الثَّانِي مَعَ تَسلِيم بَـرزَةَ بِالمُصَـالَحَاتِ، وَانقَطَـعَ حَبـلُ الوَريـدِ الَّـذي كَـانَ يُغَذِّي الغُوطَةَ، لا أدري هَل كَانَ التَّزَامُنُ كُلُّـهُ صُـدفَةً أم أنَّهـا سِـينَاريُوهَاتٍ قَـد كُتبَـت لتَسـلِكَ مَسَـاراً مُعَيَّنَاً كسِياسَةِ شَدِّ الحَبلِ، التي تَقُـومُ عَلـى التَّوَسُّـطِ بَـينَ الشَّـدِّ خَشـيَةَ انقِطَاعَـهِ أو تَركِـهِ فَيَخـرُجَ عَنِ السَّيطَرَةِ.

لـ وَعَادَت حِكَايَةُ الحِصَارِ تُعيدُ نَفسَـهَا، وَلَكِـن هَـذِهِ المَـرَّة اختَلَفَـت عَـن سَـابِقَتِهَا، فَقَـد بَـدأت تَتَلاشَى تِلكَ النُّفُوسُ المُؤمِنَةُ بِالثَّورَةِ بَعدَ رُؤيَتِهَا لمآلاتِ الغُوطَـةِ تَحـتَ حُكـمِ أُمـرَاءِ الحُـرُوبِ و أمـارات الصبيان .

وأضف إلى ذلك فِقدَانُ الثِّقَةِ عِندَ النَّـاسِ بِـأنَّ مَـن يُـدِيرُ الدَّفَّـةَ سَـوفَ يَصِـلُ بِنَـا إِلَـى أرضِ النَّجـاة، أرضٍ بِـ: دُونِ أسَدٍ، دُونِ بَعثٍ، دُونِ استِعبَادٍ، وَلَـو مِـن دُونِ تَحقِيـقِ المَطَالِـبِ الأُخـرَى كنَّـا قَـد وصـلنا للقَبولِ بِالحَدِّ الأدْنَى مِمَّا نَحلُم !

كَانَت بِدَايَةُ انسِلَاخِ الشَّعبِ عَن سِلَاحِهِ الَّذِي يَحمِلُهُ أبنَائِهِ، وَيُـدِيرُهُ حَفنَـةٌ إن لَـم يَكُونُـوا عُمَلَـاءَ، فَهُـم غَارِقُونَ فِي بَحرٍ مِنَ الغَبَاءِ وَالسُّلُوكِيَّاتِ الطُّفُولِيَّةِ فِي الحُكمِ.

أعلَمُ أنَّ قَارئي هَذِهِ العِبَارَاتِ يَنقَسِمُونَ بَينَ ثَلاثَةِ أقسَـامٍ حَسـبَ اسـتِطَلاعِي لِلـرَّأيِ عِنـدَ طَـرح هَـذِهِ الأفكَارِ لِشَرِيحَةٍ مُجتَمَعِيَّةٍ تُحيطُ بِي عايَشَت تِلكَ الأحدَاثِ وَهِيَ:

- فِئَةٌ تَرَى التَّوصِيفَ غَيرَ كَافٍ لِشرح تِلـكَ السَّـنَواتِ المُظلِمَـةِ مِـن عُمـرِ الثَّـورَةِ، وَأَنَّنِـي اختَزَلـتُ كَثِيراً مِنَ الأُمُورِ كَانَ يَجِبُ تَوضِيحُهَا وَالتَّوَسُعِ بِهَا.

- وَ فِئَةٌ تَرَى أَنَّنِي أَلقَيتُ ضَوءً عَلَى تِلكَ الفَتـرَةِ المُظلِمَـةِ بِطَرِيقَـةٍ سَـوداوِيَّةٍ، فَمِـنَ الطَّبِيعِـيّ أن يَتَواجَدَ فِيهَا كُلُّ تِلكَ الأصنَافِ، وَهُنَالِكَ أيضَاً مَا يُمكِنُ التَّطَـرُقُ إلِيـهِ مِـنَ عَظمَـةِ هَـذَا الشَّـعبِ، وَتَكيُّفِهِ مَعَ الوَاقِعِ الَّذِي إلَى الآن لَم يُصَدِّقُهُ بَنُـو جِلـدَتِنَا فِـي مَنَـاطِقَ مُحـرَّرَةٍ أُخـرَى بِأَنَّنَـا كُنّـا نُقَاوِمُ، وَنَحنُ بِتِلكَ الحَالَةِ.

- وَ فِئَةٌ تَرَى التَّوصِيفَ طَبِيعِيًّا، بـل وَيَجِـبُ أن يَكُـونَ وَاقِعِيًّـاً، وَأقـرَبَ لِلحَقِيقَـةِ لِيَكُـونَ دَرسَـاً للخُطوَاتِ المُقبِلَةِ فِي سَبِيلِ تَحرِيرِ هَذَا الشَّعبِ مِمَّا هُـوَ فِيـهِ لأَنَّ حَربَنَـا لَـم تَنتَـهِ بَعـدُ ولكنَّـهُ غالباً ما يُضيفُ عِبَارَةَ ((لَو أطنَبتَ فِي وَصْفِ كَذا)) لرأيه.

يَطوِي الحِصَارُ الثَّانِي أيَّامَهُ، كَانَ يَلفِتُ نَظَـرِي المُظَـاهَرَاتُ الَّتـي يَقُـومُ بِهَـا القَاصِـرونَ عَـن فَهـمِ الثَّورَةِ، وَالدَّافِعِ الأَسَاسِيِّ الَّذي كَانَ يُحَفِزُّ النَّـاسَ للصُـرَاخِ فِـي وَجـهِ آلَـةِ القَتـلِ البَعثِيَّـةِ فِيمَـا مَضَـى، وَالَّذِي بَاتَ هَؤُلاءِ يَستَخدِمُونَ ذَاتَ الأَدَاةِ لِلتَصفِيقِ لذَاكَ الحُكمِ الكَرتُونِيّ.

كَانَت مُبتَذَلَةً بِمَشهَدٍ تَراجِيدِيٍ مُضحِكٍ أقـربَ مَـا يَكُـونُ إلـى تَمثِيـلِ "الكُومبَـارَسِ" لِـدَورِ البُطُولَـةِ، كَانَت تُعَبِّرُ عَن مَطَالِبِهِم الشَّخصِيَّةِ مُسـتَغِلِّينَ حَاجَـةَ النَّـاسِ لأَمـوَالِهِم المُجَنَّـدَةِ، كَانَـت الوُجُـوهُ فِـي الدَّاخِلِ مَعرُوفَةً، وَالمَطَالِبُ مَقرُوءَةً، وَالغَايَةُ مَعلُومَةً عِندَ الجَمِيـعِ و كُلُّنـا يُصِـيبُنا حَالَـةُ الغَثَيَـانِ تِلـكَ التي كَانَت تَنتَابُنا عِندَ مُشَاهَدَةِ المَسِيراتِ العَفوِيَّةِ عِندَ نِّظامِ البَعثِ فيما مَضَى .

كَانَ الحِصَارُ الثَّانِي بِالعُمُومِ أفضَلَ مِنَ الحِصَارِ الأَوَّلِ مِن حَيـثُ تَجهِيـزِ أَهَـالِي الغُوطَـةِ للأُمُـورِ الحيَاتِيَّـةِ الأَسَاسِيَّةِ مِثل: حَفرِ الآبَارِ لِسِقَايَةِ الأَرَاضِي الَّتِي بَقِيـت، وَاسـتِخرَاجِ البِنـزِينِ وَالمَـازُوتِ مِـنَ البلَاسـتِك ، وَإِيجَادِ طُرقٍ للتَّعَامُـلِ مَـعَ عَـدمِ وُجُـودِ الكَهرُبَـاءِ بِاستِعَاضَـتِهَا بِالطَّاقَـةِ الشَّمسِـيَّةِ، وَإِيجَـادِ حُلـولٍ لانعِدَامِ التَّبرِيدِ، وَالاعتِمَادِ عَلَى المُجَفَّفَاتِ وَالخُضرَوَاتِ المَوسِمِيَّةِ.

كُلّ تِلكَ التَّجهِيزَاتِ لَا تَعنِي بِالضَّرُورَةِ أَنَّهُ لَـم تَحصُـل مَجَاعَـةٌ، فَالنَّـاسُ لَازَالَـت بِلَـا عَمَـلٍ تَجلِـبُ مِنـهُ مَوَرداً تَقتَاتُ عَلَيه، مَـع ارتِفَـاعٍ للأَسـعَارِ حَتَّـى عَشَـرَاتِ الأَضـعَافِ، وَتَبَـايُنِ الطَّبَقَتَـينِ الفَقِيـرَةِ ذات الأغلبية وَالأقلية الغَنِيَّةِ بِشكلٍ مَلحُوظٍ.

بَـدأَت حِينَهَـا دَعَـاوَى النَّـاسِ لأَخـذِ قُـوتِهم بِـالقُوَّةِ مِـن مُسـتَودَعَاتِ المُؤَسَّسَـاتِ، وَالَّتِـي للإِنصَـافِ جَمِيعُهَا لَا تَكفِي حَاجَةَ الغُوطَةِ؛ لأَكثَرَ مِن شَـهرٍ إِن تَـمَّ تَوزِيعُهَـا، وَذَلِـكَ لِضَـخَامَةِ الكَمِّيَّـاتِ المُسـتَهلَكَةِ لِنِصفِ مِليُونِ إِنسَانٍ مُقَابِلِ الأَسعَارِ الَّتِي لَا يُمكِن لميزانيات الدُّوَلِ تَحَمُّلُهَا حَتَّى.

وَهَذَا مَا حَصَلَ حَيثُ عَمَّـتِ الفَوضَـى حِينَهَـا، وَلَـم يَـتَمَكَّن مُلُـوكُ الكَرتُـونِ مِـن إِيجَـادِ حَـلٍّ لِلأَهَـالِي، فَـ:[فَاقِدُ العَقلِ لَا يُعطِي أَفكَاراً]!

كَانَ شُعورِي حِينَهَا: أَنَّ ذَاكَ الفُتَـاتَ (الفَصَـائِلَ وَ المُؤَسَّسَـاتِ) يُحَـاوِلُ أَن يُمضِـي يومَـهُ فَقَـط لَـا أَكثَرَ، وَلَا يَدرِي مَاذَا يُمكِنُ أَن يَحدُثَ غَداً ؟، وَهَذَا مَـا سَـمِعتُهُ كَثِيـراً مِمَّـن كَـانُوا يُـدِيرُونَ الدَّفَّـةَ، كُنـتُ أَظنُّ أَنَّ الدُّوَلَ الَّتِي تَدعَمُهُم قَد وَعَدَتْهُم بِشَيءٍ مِقَابِـلَ كُـلِّ تِلـكَ الخَـدمَاتِ الَّتِـي أَسـدُوهَا لَهُـم، وَكُنـتُ أَظنُّ أَنّهُم مَـازَالُوا يَملِكُـونَ القَلِيـلَ مِـنَ الفَهـمِ؛ كَـي يَسـتَطِيعُوا أَن يُحَـافِظُوا عَلَـى مَمَـالِكِهِم تِلـكَ بِمَصَالِحَ مُشتَرَكَةٍ يقُومُونَ بِها.

إِلَّا أَنَّنِي وَبعدَ تِلكَ السَّنَوَاتِ أَدرَكـتُ أَن لَـا أَتَوَقَّـعَ الكَثِيـرَ مِـن أَمَـارَةِ الصِّـبيَانِ وَمُلُـوكِ المَنَـاهِجِ، فَالقَانُونُ السَّائِدُ للعَقلِيَّةِ الَّتِي تَلـبِسُ لَبُـوسَ الـدِّينِ [أَنَـا وَمِـنْ بَعـدِيَ الطُّوفَـانُ]، نَعَـم تِلـكَ كَانَـت حَقِيقَةً، وَلَيسَت مُجَرَّدَ مَقُولَةٍ تَخرُجُ مِنَ الأَفوَاهِ.

كَانَت تِلكَ السَّائِدةَ حَتَّى أيَّامِ التّهجِيرِ الَّتِي سَـنَأتِي عَلَـى ذِكرهَـا لاحقـاً ، فَنِظَـامُ المُـزَاوَدَاتِ بَـينَ تِلـكَ المَنَاهِجِ وَالَّتِي أوصَلتِ الشَّبَابَ إِلَى كُلِّ طَرَفٍ عَـدَا طَـرَفِهِم لَـم يَتَوَقَّـف حَتَّـى فِـي الحَشـرَجَاتِ الأَخِيـرَةِ مِن عُمرِ الغُوطَةِ.

كَانَ حِينَهَا أصحَابُ دَعَواتِ إِسـقَاطِ النِّظَـامِ قَبـلَ كُـلّ شَـيءٍ قَـد خَفَتَـت أصـوَاتُهُم، وَذَلِـكَ إِمَّـا لأَنّهُـم شَعرُوا بِاليَأسِ، أو تمَّ إِقصَائِهِم، أو أنّهُم لَم يَكُونُـوا عَلَـى المُسـتَوَى المَطلُـوبِ مِـنَ القُـوَّةِ لِيَقِفُـوا فِـي وَجهِ هَؤُلاءِ.

وَحتَّى أنَّ الكَثِيرَ مِنهُم تَمَّ نَبذُهُ مِنَ المُجتمَعِ، وَإِلصَـاقِهِ تُهَمَـةَ عَـدمِ الثَّوريَّـةِ بِـالمَفهُومِ المَطبُـوعِ فِـي أحلَامِ كُلِّ مَشرُوعٍ، وَأنّه هؤلاء (مَن يَـرى أنَّ المَنَـاهِجَ تَسِـيرُ بِهَوَاهَـا) يُخَطِّئُـونَ كُـلَّ الفِـرَقِ، وَالفِئَـاتِ، وَالمَنَاهِجِ الَّتِي تَصَدَّرَتِ السَّـاحَةِ حِينَـذَاك وهَـذَا مُخَـالِفٌ لِلمَنطِـقِ لَـدَيهِمُ الـذي يَـدَّعِي بِوجُـودِ فِرقَـةٍ نَاجِيَةٍ حيث يَعتَقِدُ كُلُّ مَنهَجٍ أنه هوَ بِطَرِيقَتِهِ وَعليها يُشَرعِنُ عَمَلَهُ.

ومَازَالَت جُعبَتِي تَمتَلِئُ بِالكَثِيرِ مِنَ الأَحدَاثِ فِي تِلـكَ الفَتـرَةِ المُظلِمَـةِ، وَلَكِـن أكتَفِـي بِهَـذَا القَـدرِ مِـنَ التَّوصِيفِ؛ لأَنَّ الفِكرَةَ المُرَادُ التَّعبِيرُ عَنهَا قَد وَصَلت لِمَـن أَرَادَ أن يَعـرِفَ بَعضَـاً مِمَّـا كَـانَ يُحَـاكُ دَاخِـلَ القَوقَعَةِ الكَبِيرَةِ فِي تِلكَ الفَترَةِ، وَلأَنتَقِلَ إِلَى الفَصلِ الَّذِي لأَجلِهِ كَانَت فِكرَةُ الكِتَابِ.

لَم نَترُكَهَا وَلَكِنْ.....

لَم نَتركَهَا، وَلَكِنْ.....

الفَصلُ الرابع:

** لَم نَترُكَهَا، وَلَكِنْ**

التَّهجِيرُ تِلكَ الكَلِمَةُ الَّتِي كَانَت لِذكرِهَا تَتَلَوَّنُ الوُجُوهُ، وَتَتَسَارَعُ نَبضَاتُ القَلبِ خَوفَاً مِن أنْ تَكُونَ يَوماً مَا حَقِيقَةً، وَوَاقِعَاً مَفرُوضَاً.

كَانَ هَذَا المُصطَلَحُ الحَدِيثُ جَدِيداً عَلَى مَسَامِعِنَا، بَعدَ مَا بَدأَ بِهِ نِظَامُ الأَسدِ بِمَسَاعٍ وَضَمَانَاتٍ رُوسِيَّةٍ بِتَطبِيقِهِ عَلَى المَنَاطِقِ الَّتِي لَم وَلَن يَستَطِيعَ يَوماً إدخَالَهَا تَحتَ عَصَا الطَّاعَةِ مِن جَدِيدٍ.

أذكُرُ أنَّ مَنَاطِقَ حِمصَ القَدِيمَةِ وَمَنَاطِقَ وَادِي بَرَدَى وَمَضَايَا وَأَخُصُّ بِالذِّكرِ دَارَيَّا وَالَّتِي كَانَت حَجَرَ الدُّومِينُو الأَكثَرَ تَأثِيراً حيثُ بَدأَت بَعدَهَا القِلَاعُ تَتَسَاقَطُ فِي مُسلسَلٍ لَم يَنتَهِ كَعَادَةِ الأَفلَامِ الَّتِي كُنّا نُشَاهِدُهَا.

بَل انتَهَت بِتَشرِيدِ شَعبٍ لَن يَعُودَ إلَى وَطَنِهِ فِي المُستَقبَلِ القَرِيبِ أو حَتَّى البَعِيدِ إن صَحَّ التَّعبِيرُ، فَمُؤَشِّرَاتُ التَّصرِيحَاتِ لِلدُّولِ دَائِمَةِ العُضوِيَّةِ فِي مَجلِسِ الأَمنِ لَا تُوحِي بِأَنَّ الأَسدَ يُشَكِّلُ عَائِقَاً للسَّلامِ فِي المِنطَقَةِ، وَأَنَّ التَّعدِيلَاتِ الدُّستُورِيَّةَ الَّتِي سَيُجرِيهَا سَتُقَنِّنُ وُجُودَهُ فِي السُّلطَةِ مِمَّا سَيُؤَدِي إلَى إعَادَةِ الثِّقَةِ بِهِ مِن جَدِيدٍ؛ لَيسَ لِأَنَّ الأَسدَ انتَصَرَ، بَل لِأَنَّهُم استَطَاعُوا أن يُحَطِّمُوا شَعباً كَانَ مِنَ المُمكِنِ أن يَخلُقَ تَغيِيراً فِي المِنطَقَةِ، وَيُعَكِّرَ صَفوَ امتِطَاءِ الدُّوَلِ لِحُكَّامِ العَرَبِ، وَيَنشُرَ عَدوَى التَّغيِيرِ إلَى بَاقِي الدُّوَلِ العَمِيلَةِ الَّتِي سَتَتَضَارَبُ مَصَالِحُ الدُّوَلِ مَعَهَا.

كُلُّ تِلكَ الأسبَابِ كَانَت كَفِيلَةً بِأن تُنهِكَ هَذَا الشَّعب بِحَربٍ لَا تَنتَهِي إلَّا بِأحدِ هَذَين الحَلَّيْن:

- ✓ إمَّا القَبُولُ بِالحِذَاءِ البَعثِيِّ
- ✓ أو تَهيمَ عَلَى وَجهِ الأرضِ بَحثاً عَن مَكَانٍ لَا تُقَابِلُ فِيهِ عُنصُرِيَّةً عَلَى سَطحِ هَذَا الكَوكَبِ الأزرَقِ.

"دَارَيَّا"، كَانَت مِنَ المَفَاصِلِ المُؤَثِّرَةِ فِي نُفُوسِ الكَثِيرِ مِن أهلَ الغُوطَةِ، بِشَكلٍ خَاصٍّ، فَكُلّ ذَلكَ الصَّبر وَالمُقَاوَمَةِ لِتلكَ القَلعَةِ الصَّامِدَةِ انتَهَى بِالتَّهجِير.

← كُلُّ تلكَ البُطُولَاتِ وَالأسَاطِيرِ انتَهت عَلَى أعتَابِ البَاصَاتِ الخَضرَاءِ، كَانَت تِلكَ أوَّلَ صَفعَةٍ لَنَا بِأنّ الحَقَّ يُمكِنُ أن يُهَجَّرَ، وَيُشَرَّدَ بَعدَ مَا قَامَ أشبَاهُ العُلَمَاءِ لَدينَا بِتَدلِيسٍ وَتَلفِيقِ مَعنَى النَّصرِ لِكَي نَتَّبِعَهُم تَبَعِيَّةً عَمياءَ، حَيثُ يَغُضُّونَ الطَّرفَ عَن الإعدَادِ، وَالتَّجهِيزِ، وَالعَقلانيَّةِ، فَكيفَ نَسألُهُم عَنهُ ؟ وَالنَّصرُ حَلِيفُنَا.

← كَانَت الأحجَـارُ تَسـقُطُ تِبَاعَـاً بِـنَفسِ تِلـكَ الطَّرِيقَـةِ البَشِـعَةِ، فَبعـدَ حَـرقٍ وَهَـدمٍ لِلمُـدُن، وَجَعلِهَا كَالأَشبَاحِ بِحصَارِهَا لِسنَواتٍ بِحَيثُ تَصِلُ تِلكَ المُـدُن لِمَرحَلَـةِ الـذَّروَةِ مِـن تَحَمُّـلِ الأَلَـم، تَضـطَرُّ لأن تَبتِرَ مَا يَتَصِلُ بِهَا مَعَ الأَرضِ لِلحِفَـاظِ عَلَـى مَـا تَبقَّـى مِـنَ الأَجـزَاءِ عَلَـى قَيـدِ الحَيَـاةِ، وَأن تَخـرُجَ قَسراً إِلَى مَنَاطِقَ مَا تَزَالُ تَتَنَفَّسُ عَبَقَ الحُرِّيَّةِ، أَلا وَهِيَ: إِدلِبُ الخَيـرِ، الَّتِـي لَـن نُـوفِيَ حَـقَّ أَهلِهَـا مَهمَـا كَتَبَت أَقلَامُنَا.

← دَخَلَتِ البَاصَاتُ إِلَى دَارَيَّـا، وَتَـمَّ نَقلُهُـم مَـعَ عَـوَائِلِهِم، كُنـتُ أَنـا وَمَـن فِـي الغُوطَـةِ وَجَمِيـعُ السُّورِيِّينَ نَنظُرُ إِلَى أُولَئِكَ المُجَالِدِين الَّذِينَ كَانُوا مِثَالاً يُحتَذَى بِهِـم، وَالَّـذِينَ عَـانُوا لِأَجـلِ خُلُـودِهِم مَـا عَانُوا، كَانَت تِلكَ الجَمرَةُ الَّتِي حَرقَـت قَلـبَ الثَّـورَةِ، حَيـثُ كَانَـت المَثَـلَ الأَعلَـى لِلثَّـورَةِ، بِـالرُّغمِ مِـن وُجُودِ بَعضِ الأَخطَاءِ فَتِلكَ هِيَ طَبِيعَةُ البَشَـرِ وَسُـنَّةُ الكَـونِ، إِلَّـا أَنَّهَـا بِالمُجمَـلِ كَانَـت مِثَـالاً يُحتَـذَى بِهَا، وَلَطَالَمَا كُنّا نَضرِبَ المَثَلَ بِهَا ضِمنَ الغُوطَةِ، ونُحَـاوِلُ الـتَّعلمَ مِـن تَجـرِبَتِهِم النَّاجِحَـةِ تِلـك، وَلَكِـن أَمَامَ مَرأَى العَالَمِ وَأَمَامَ أَعيُنِ كُلِّ مَن يَتَشَدَّقُ بِحقُوقِ الإِنسانِ أَحرَقُوا شَمعَتَنَا.

← بَعِيداً عَن تِلـكَ المُصـطَلَحَاتِ الكَاذِبَـةِ، عَـن التَّغييـر الـدِّيمُغرَافِيّ، وَتَبـدِيلِ سُـكَانِ المَنَـاطِقِ، فقد قَامَ بِهَا النِّظَامُ بِكُلّ وَقَاحَةٍ أَمَامَ هَذَا المُجتمَعِ الـدُّولِيِّ، وانتَهَكَهَـا مَـرَّةً بَعـدَ مَـرَّةٍ، وَفِـي كُـلّ مَـرَّةٍ يَمتَعِضُ المُجتمَعُ، وَيَتَمَنَّعُ، وَهُوَ لَهُ رَاغِبٌ حَقِيقَةَ الأمر.

← فَالحَادِثَةُ تَكَرَّرَت مِرَاراً وَتِكرَاراً مِـن حِصَـارٍ، وَحَـرقٍ وَتَهجِيـرٍ، وَلَـا زَالَ المُجتمَـعُ يُعطِيـهِ الشَّـرعِيَّةَ فِي مَجلِسِه لِيُدَافِعَ بِكُلِّ وَقَاحَةٍ عَن إجرَامِهِ؛ لِنَـزدَادَ يَقِينَـاً بِـأَنّ هَـذَا المَجلِـسَ يَعتَبِـرُ النِّظَـامَ طرَفَـاً ، لَا مُجرِمَاً دَاخِلَ قَفَصِ الاتّهَامِ، وَالشَّعبَ المَذبُوحَ طَرَفَاً لا ضَـحِيةً، أَذكُـرُ أَنّنِـي كُنـتُ أَتَنَـاوَلُ الطَّعـامَ مَـعَ عَائِلَتِي، وَأَخبَرتُهُم حِينَمَا رَأَينَا التَّهجِيرَ يَتَوالَى عَلَى المَنَاطِقِ الصَّغِيرَةِ!!!

هَل يُمكِنُ لَنَا يَومَـاً أَن نُجبَـرَ عَلَـى رُكُـوبِ تِلـكَ البَاصَـاتِ؟ لَـم تَسـتَطِع حِينَهَـا وَالِـدَتِي أَن تُكمِـلَ طَعَامَهَا.

لم تَكُن تِلكَ الفِكرَةُ مَطرُوقَةً أَبَداً فِي الغُوطَةِ، فَـنحَنُ بِمَسَـاحَةٍ جُغرَافِيَّـةٍ وَإِن كَانَـت صَـغِيرَةً إِلَّـا أَنّهَـا كَانَت مُحَاصَرَةً مِن كُلّ الجِهَـاتِ لِسَـنَوَاتٍ، نَاهِيـكَ عَـن نِصـفِ مِليُـونِ إِنسَـانٍ اعتَـادُوا ذَلِـك، إِضَـافَةً لامتِلَاكِهَا أَغلَبِيَّةً ثَائِرَةً فِي وَجهِ نِظَامِ الأَسَدِ، فَهُـوَ يَحتَـاجُ لِآلَافِ البَاصَـاتِ لِنَقـلِ كُـلّ تِلـكَ الأَعـدَادِ؛ لَـم نَكُن نَظُنُّ أَنّنَا يَومَاً مَا يُمكِنُ أَن نَكُونَ تَصفِيَةً لِحسَابَاتٍ إِقلِيمِيَّةٍ وَجَردٍ سَنَوِيٍّ لِمُجتَمَعٍ دُوَلِيّ.

كَانت الاحتِمَالاتُ الَّتِي يَتَرَدَّدُ صَـدَاهَا دَاخِـلَ مُجتَمَـعِ الغُوطَـةِ، وَالَّتِـي كَانَـت تُطـرَحُ عَلَـى بَعـضِ القَنَواتِ مِن مُحَلِّلِـينَ للوَضـعِ السُّـورِيِّ، حَيـثُ كَانَـت مَقبُولَـةً لِعَامَّـةِ النَّـاسِ عُمُومَـاً هِـي أن تَكُـونَ الغُوطَةُ كَمَا كَانَ الحَلُّ فِـي سَـرَايِيفُو بِـ[اتّفاقيَّةِ دَايتُـون للسـلام 1995م]، وَالَّـذِي جَعـلَ مِنهَـا دَولَـةً فِيدرَالِيَّـةً للصّـربِ بِنِسـبَةِ ٤٩٪ مِـنَ البُوسـنَة وَالهرسِـك، وَلِلمُسـلِمِينَ وَالكُـرواتِ ٥١٪ بِاتِّفَاقِيَّـةٍ مَعرُوفَةٍ، وَذَلِكَ لاستِحَالَةِ اندِمَاجِ المُجتَمَعَينِ مِن جَدِيد كَمَا كُنّا عَلَيهِ نَحنُ حِينَهَا.

فَـ[مِليُون شَهيد]، و[مَلَـايِينِ الجَرحَـى] يَكفُلُـونَ عَـدَمَ قِيـامِ دَولَـةٍ يَرضَـى بِهَـا كُـلُّ الأَطـرَافِ، وَذَلِـكَ لاتِّسَاعِ حَجمِ الهُوَّةِ بَينَ [طَوائِفِ الشَّعبِ]، و[تَيَّارَاتِهِم].

وَذَلِكَ بِسببِ دَنَاءَةِ النِّظَامِ، وَاستِخدَامِهِ لأَورَاقِ الأَقلّيَّاتِ، وَمِن ثُـمَّ زَجِّهِـم فِـي مَعـارِكَ وُجُـودٍ، وَإِخَـافَتِهِم مِن بَاقِي الطَّوائِفِ، وَجعلِ ذَاكَ الوَطنَ مِرجَلاً يَغلِي، وَهُوَ يُحَرِّكُ القِـدرَ كَمَـا يَشَـاءُ، لَـم يَكُـن يَومَـاً هَـذَا النِّظَامُ يَسعَى إلى جَعلِنَا شَعبَاً وَاحِداً، وَلَو رَوَّجَ بِـذَلِكَ عَلَـى إعلَامِـهِ بِطَرِيقَـةٍ خَبِيثَـةٍ؛ إلَّـا أَنّـهُ و عَلَـى أَرضِ الوَاقِعِ كَانَ مُنفَصِلاً عَن تِلكَ –البرُوبَاغَانَدَا– الَّتِي يَقُـومُ بِهَـا مُهَرّجُـوهُ بِعُرُوضِـهِم عَلَـى قَنَواتِـهِ بِطَرِيقَةٍ بِدَائِيَّةٍ غَيرَ احتِرَافِيَّةٍ، تُثِيرُ الغَثَيان ..

لَم نَكُن شَعْبَاً وَاحِداً بَل كُنَّا اثنَين شَعْبٌ حُرٌّ يَرَى بِأَنَّ حَقَّهُ ثَابِـتٌ لا يُمكِـنُ التَنَـازُلُ عنـهُ وَشَـعبٌ اعتَـادَ نِظَامَ العُبُودِيةِ وَ أَلِفَهَا كَنَمَطٍ للحياةِ لا بَدِيلَ عَنهُ.

فِي نِهَايَةِ [عَام ٢٠١٦] كَانَ سُقُوطُ حَلبَ مُدَوِّيَاً، ثم كَانَ التَّهجِيـرُ فِيمَـا بَعـدُ أمـرَاً طَبِيعيَّـاً أو حَتمِيَّـاً لأيّ مِنطَقَةٍ سيَبدأُ النِّظَامُ بِحَرقِهَا وَالوقُوفِ عَلى أطلالِهَا المُدَمَّرَةِ مُنتَشِياً بِنَصرِهِ الذي يُشبِهُ.

أضحَى المُسلسَلُ الدَّمَوِيُّ للأحدَاثِ مُسلَّمَةً حَتمِيَّةً لَـدَى كُـلّ المَنَـاطِقِ الَّتِـي يَبـدأُ النِّظَـامُ بِقَصـفِهَا لِيُعيدَ السِّينَارِيُو مِن جَدِيدٍ بِكُلّ تَفَاصِيلِه، وَتُعَادَ نَفسُ مَشَـاعِرِ القَلـقِ وَالإِدَانَـةِ وَالخَـوفِ مِـنَ التَّغييـرِ الدّيمُغرَافِي ، كَانَت "حَلَبُ" مِثَالاً قَرِيبَاً لِلغُوطَةِ مِن حَيثُ العَدَدِ، وَلَكِـن هِـيَ وَرِيفُهَـا لَـا يَفصِـلُ بَينَهُمـا سِوَى بِضعَةَ كِيلُومِتَرَاتٍ، أيَّ أنّ الأمرَ أسَهلُ بالتَطبِيقِ مُقَارَنَةً مَعَ مَنَاطِقَ بَعيدةٍ كَالغُوطَةِ.

← لَم يَعُد الأمرُ بعدَ تَهجِيرِ "حَلَـبَ" كَقَبلِهَـا؛ فَـالأمرُ أصـبَحَ مُعلَنَـاً، وَالمُعَادَلَـةُ بَاتَـت مَعلُومَـةَ الأطرَافِ، **وَلأزيدكم القَولَ** أنه و بَعدَ الوَضـعِ المُتَـرَدِي للفَصَـائِلِ فِـي الغُوطَـةِ وَاقتِتَـالِهِم، كُنّـا لا نَـزَالُ نَتَخَيَّلُ فِي أذهانِنَا مَنظَرَنَا، وَنَحنُ نَنتَظِرُ دُخُولَ بَاصَاتِ التَّهجِيرِ ولا نَقدِرُ .

↵ كُنّا نُفَكِّرُ بِكُلّ السّينَارِيُوهَاتِ عَدَا التَّهجِيرِ؛ لأنّنَا وَبِكُلّ بَسَـاطَةٍ وَبَعِيـداً عَـن كُـلِّ مَـا يُحيطُنَـا مِـن دَلائِلَ تُشِيرُ إِلَى التَّهجِيرِ، إِلَّا أنّنَا لَا نُرِيدُ ذَلكَ فَحسـب، وَلَـا نُرِيـدُ أن نُفَكِّـرَ لمُجَـرَّدِ التَّفكِيـرِ بِـذَلك، رُبَّمَـا يَكُونُ دَافِعَاً لَنَا كَي نُقَاوِمَ عَلَّ مُعجِزَةً تَحُلُّ بِنَا قَرِيبَاً أو يَجعَلَ اللَّهُ لَنَا مَخرَجَاً كَعصَا مُوسَى.

لأنَّ الكَربَ وَالبُؤسَ الَّذِي نَعِيشُـهُ كـان أفضَـلَ مِـن المَجهُـولِ، طَبعَـا كَلَـامِي عـنِ الأَعَـمِّ الأَغلَـبِ؛ لأنّ هُنَالِكَ مَن كَانَ يُرِيدُ الخُرُوجَ إِلَى أيِّ مَكَانٍ كَي تَعُـودَ الحَيَـاةُ إِليـهِ مِـن جَدِيـدٍ، بَعـدَ أن تَوقَّفَـت عَقَـارِبُ السَّاعَةِ لَديه مِنذُ أن بَدأَ الحِصَارُ، وَلَكِن لَم يَكُن تَوَجُّهَاً عَامَّاً لِأَهَالِي الغُوطَةِ.

← كَانَت أعدَادُ التَّهجِيرِ الَّتِي يَتِمُّ عَرضُهَا تَبعَـثُ الطُّمَأنِينَـةَ فِـي قُلُوبِنَـا؛ لأنّ العَـدَدَ مَـازَالَ لَـا يُـذكَرُ أَمَامَ سُكَانِ الغُوطَةِ، تَهجَّـرَت حِمـصُ القَدِيمَـةُ، وَمِـن ثُـمَّ الغُوطَـةُ الغَربِيَّـةُ، وَقِسـمٌ مِـنَ الجَنُوبِيَّـةِ، وَالزَّبَدَانِي وَمَضَايَا وَحَلَبُ، وَلَم يَبـقَ فِـي السَّـاحَةِ سِـوَى [الغُوطَـةُ الشَّـرقِيَّةُ] مَـعَ [القَلَمُـونِ الشَّـرقِيِّ] بِالإِضَافَةِ إِلَى [دَرعَا] مَعَ مَا يُحِيطُهَا، وَأَجزَاءَ مِن [ريف حِمص الشَّمَالِيِّ].

كَانَتِ الغُوطَةُ كمَا قَد أَسـلَفتُ سَـابِقَاً قَـد غَرِقَـت بِالمَنَاطِقِيَّـةِ الَّتِـي أَعقَبَـت الفَصَـائِلِيَّةَ، وَانقَسَـمَت فِكرِيَّاً، وَاجتِمَاعِيَّاً بَعدَ أَن انقَسَمَت جُغرَافِيَّاً، وَقَد نَالَ سُقُوطُ المَنَاطِقِ حَولَهَا مِن عَزِيمَتِهَا مَا نَال.

سَقَطَت عَدرَا العُمّالية وَ عَدرا البَلد وَمَـن ثَـمَّ المُلَيحَـةُ وَلَـم تُفلِـحُ مَعرَكَـةُ الدُّخَّانِيَّـةُ وَسَـقَطَ القَطَّـاعُ الجَنُوبي لِلغوطةِ وَ بَرزَةُ وَالقَابُون وَ قَامَت بَعضٌ مِـنَ المَعَـارِكِ عَلَـى جَبَهَـاتِ جَـوبَرَ وَعَـينِ تَرمَـا وَلَـم تَنجَح .

لـ كَانَت مَعرَكَةُ "دَبِيبِ النَّملِ" الَّتِي اتَّبَعَهـا النِّظَـامُ بِدَايَـةَ حِصَـارِهِ لِلغُوطَـةِ، تَسِـيرُ بِـبُطءٍ طِيلَـةَ الخَمسِ سَنَواتٍ فَهُوَ يَقضِمُ كُلّ فَترَةٍ قِطعَـةً مِـن أَرضِ الغُوطَـةِ، وَمِـن ثُـمَّ يَتَوَقَّـفُ إِلَـى أَن تَسَـارَعتِ الوَتِيرَةُ فِي بِدَايَةِ عَامِ ٢٠١٧ وَبَدأَ بِأَخذِ المَنَاطِقِ الزِّرَاعِيَّـةِ بِـوتِيرَةٍ مُتَسَـارِعَةٍ أَكثَـرَ مِـن ذِي قَبـلُ. حَيـثُ قَامَت الفَصَائِلُ حِينَهَا بِبَعضِ مَعَارِكِ استِرجَاعٍ لِبَعضِ المَنَاطِقِ، وَلَم تَنجَح.

← فِي نِهَايَةِ [شَهرِ ١٢ لِعَامِ ٢٠١٧] بَـدَأَت بَعـضُ الفَصَـائِلِ المَرحَلَـةَ الثَّانِيَـةَ لِمَعرَكَـةٍ كَانَـت قَـد أَطلَقَتهَا فِي [الشهر١١] لِتُعِيدَ بَعضَاً مِمَّا قَـد فَقَـدنَاهُ مِـن مَعنَوِيَّـاتٍ كَانَـت تَسـتَهدِفُ "إِدَارَةِ المَركَبَـاتِ" الَّتِي تَتَرَبَّعُ بَينَ حَرَستَا، وَعِـربِينَ، وَمَـدِيرَا، فِـي حِـينِ اعتَبَرتَهَـا الفَصَـائِلُ الَّتِـي لَـم تُشَـارِك إِضَـاعَةً لِلمَجهُودَ!

تِلكَ الثُّكنَةَ العَسكَرِيَّةُ الَّتِي كَانَت تَستَهدِفُ أَطفَالَ الغُوطَةِ، وَالَّتِي لَم نَستَطِع اقتِحَامَهَا، وَفَشِلَت عِدَّةَ مَرَّاتٍ، لِأَنّ النِّظَام كَانَ قَد اعتَبَرهَا مِنَ القَوَاعِدِ الهَامَّةِ الَّتِي تُحِيطُ بِأَسوَارِ العَاصِمَةِ، مِثلَمَا كَانَت إِدَارَةُ الدِّفَاعِ الجَـوِيِّ فِي مَدِينَةِ المُلَيحَةِ ضِمنَ الغُوطَةِ، فَفِي كُلّ مَرَّةٍ يُحَاوِلُ الثُّوَارُ اقتِحَامَهَا يُمطِرُ الغُوطَةَ بِوَابِـلٍ مِـنَ الجَحِـيمِ، وَيَستَقدِمُ كُلَّ قُوَّاتِهِ لِحِمَايَتِهَا، وَكَانَت المَحَاوِرُ المُستَهدَفَةُ ثَلَاثَةٌ:[حَرستَا، وَعِربِينَ، وَمَدِيرَا]

بَدأتِ المَعركَةُ صَبَاحاً كَانَت المَنَاطِقُ المُحِيطَةُ بِتلكَ الثُّكنَة مُتَفَاوِتَةً بِالكثَافَـةِ السُـكَانيَّةِ، فَمَدينَـةُ حَرستَا وَمَديرَا أقلُّ اكتِظَاظاً مِن عِربينَ، حَيثُ كَانَت تَحتَوي عَلَى مَا يَزيدُ عَن خَمسٍ وَ ثَلاثِينَ ألـفِ نَسَـمَةٍ، يَقطِنُونَ فِيهَا لِذَلكَ بَدأ بِهَا النِّظَامُ لِينتَقِمَ مِن المَدنِيينَ كَعَادَتِهِ، وَذَلكَ لأَنَّ قَصفَ المَنَـاطِقِ الخَالِيَـةِ مِـنَ السُّكَانِ لَا تَعُودُ عليهِ بِأَيِّ شَيءٍ وَلَا تَردَعُ تَقَدُّمَ الثُّوارِ دَاخِلَ إِدَارَةِ المَركَبَاتِ، تَمَّ تَحريرُ نِصفِ الثُّكنَـةِ تَقرِيبَـاً، لِيبدأَ بَعدَهَا بِحَملَةٍ مُعَاكِسَةٍ كَالعَادَةِ، وَيَستَعِيدَ مَا قَد خَسِرَهُ، لَم نُدرك أَنّهَا كَانَتِ المَعرَكَةَ الأَخِيرَةَ فِي تَارِيخِ الغُوطَةِ، أو كنا ندرك و لا نُرِيدُ أن نُقنِعَ أنفُسَنا بِذلكَ .

لـ أذكُرُ أنَّ ثَمَانِيَةَ أحيَاءٍ مِن أصلِ أربَعٍ وَعِشرِينَ فِـي مَدِينَـةِ عِـربِينَ خَرجَـت عَـن الخِدمَـةِ نِهَائِيَّـاً، وَبَاتَ النَّاسُ يَقطِنُونَ دَاخِلَ الأَقبِيَةِ المُحِيطَةِ بِالثُّكنَة فِـي كُـلٍّ مِـن حَرسـتَا، وَعِـربِينَ، وَمَـدِيرَا، وَلِتَبـدأَ مِن بَعدِهَا مُعَانَاةُ السَّكَنِ الجَمَاعِيِّ دَاخِلَ الأَقبِيَةِ، حَيـثُ اسـتَمَرَّتِ المَعرَكَـةُ مَـعَ تَبِعَاتِهَـا مِـن القَصـفِ حَتَّى مُنتَصَفِ الشَّهرِ الثَّانِي، كَانَت كَفِيلَةً بِـأَن يَتَعَـايَشَ النَّـاسُ مَـعَ فِقـدَانِ الخُصُوصِـيَّةِ المُجتَمَعِيَّـةِ، وَفِقدَانِ عَامِلِ الاستِقلَالِيَّةِ المَنزِلِيَّةِ.

← تِلكَ المُفرَدَاتُ لَـم نَكُـن نُـدركُ مَعنَاهَـا حَتَّـى عِشـنَاهَا، كَانَـتِ الأَقبِيَـةُ مُتَفَاوِتَـةَ الأَحجَـامِ، وَالكَثَافَةِ السُّكَانِيَّة تَتَرَاوَحُ بَينَ خَمسِينَ إِلَى ثَلاثِ مِئَـةِ شَـخصٍ، جَمِـيعُهُم يَعِيشُـونَ مَعَـاً يَـأكُلُونَ مِـنَ الفُتَاتِ ذَاتِهِ، بَعدَ أَن أَحكَمَ النِّظَامُ خِنَاقَـهُ مَـرَّةً ثَالِثَـةً عَلَـى الغُوطَـةِ الشَّـرقِيَّةِ، يَسـتَمِعُونَ للقَصـفِ مَعَاً، يَخَافُونَ عِندَ كُلِّ بِرمِيلٍ، وَقَذِيفَةٍ، وَصَارُوخٍ يَهطِلُ خَـارِجَ أَسـوَارِ القَبـوِ، كَانَـت بَوَّابَـةُ القَبـوِ تُمَثِّـلُ خَطَ المَوتِ، وَلا سِيَّمَا الأَطفَالُ الَّذِينَ اشـتَاقُوا لأَشِـعَّةِ الشَّـمسِ الَّتِـي حَجَبَهـا دُخَـانُ القَـذَائِفِ وَالحَرَائِـقِ وَغُبَارِ الرُّكَامِ.

← كَانَت مُعظَمُ الأَقبِيَةِ غَيرُ مُجَهَّزَةٍ لِتَستَوعِبَ كُلَّ تِلكَ الأَعدَادِ، الحَمَّامَـاتُ مُشـتَرَكَةٌ، وخَـزَّانُ المِيَـاهِ مُشتَرَكٌ، لَن تَتَخَيَّلَ حَجمَ المُعَانَاةِ الَّتِي بَدأَ يُعَانِي مِنهَا الأَهَالِي، فَالأَمرُ لَم يَكُن يَوماً أَو يَومَينِ فَقَد دَامَ لِأَشهرٍ.

وقتها كَانَ النِّظَـامُ قَـد تَقَـدَّمَ وَاسـتَولَى عَلَـى مَطَـارِ مَـرجِ السُّـلطَانِ فِـي المَنطِقَـةِ الشَّـرقِيَّةِ للغُوطَةِ، وَسَقَطَت بَعضُ المَنَاطِقِ الَّتِـي كُنَّـا نَزرَعُهَـا، وَنَقتَـاتُ مِنهَـا، كَـانَ المَـوتُ يُحَاصِـرُنَا مِـن كُـلِّ اتِّجَاهٍ، فَقَدنَا الشُّعُورَ بِالوَقتِ حِينَهَا، كُنَّا نُحَاوِلُ أَنَّ نَعِيشَ اليَومَ ذَاتَهُ.

أدركنَا فِيمَا بَعد أنّ هُنَاكَ الكَثيرَ مِنَ التَّـدَابِيرِ الَّتِـي كُنَّـا نَقُـومُ بِهَـا فِـي بُيُوتِنَـا الخَاصَّـةِ بَعِيـداً عَـنِ المُجتمَـعِ كَـــ[العِنَايَةِ الصِّـحيَّةِ]، وَ[النَّظَافَـةِ]، وَ[الجَرحَـى] السَّـابِقِينَ الَّـذينَ لَـدَيهِم إِعَاقَـاتٍ دَائِمَـةٍ، وَ[مَرضَى السُّكَرِيِّ]، وَ[الضَّغطِ] وَ.... الخ.

كُلُّ تِلكَ الأَشيَاءِ لَم تَكُن بالحُسبَانِ، وَالَّتِي كَانَـت مُحرجَـةً للكَثِيـرِ، فَـالأَمرُ كَـانَ أَطـوَلَ مِمَّـا نَتَوَقَّـعُ، قَامَت بَعضُ المَنَاطِقِ بِإِنشَاءِ شَـبَكَةٍ مِـنَ الأَنفَـاقِ دَاخِـلَ المَدِينَـةِ لِتُوصِـلَ بَـينَ الأَقبِيَـةِ ضِـمنَ خَـطٍّ رَئِيسيٍّ يَصِلُ إِلَى الأَمَاكِنِ الرَّئِيسَةِ كَـــ: [المَشَـافِي]، وَ[العِيَـادَاتِ]، وَ [مَركَـزِ المَدِينَـةِ]، لَـم تَكُـن مُجَهَّـزَةً بِشكلٍ كَامِلٍ، وَلَكِنَّ النَّاسَ شَرَعُوا بِتَرمِيمِ النَّقصِ وَفَـتحِ الأَقبِيَـةِ عَلَـى بَعضِـهَا، وَإِنشَـاءِ مَخـرَجٍ لِلنَّجَـاةِ بَعدَ أَن استَهدَفَ النِّظَامُ مَدَاخِلَ الأَقبِيَةِ أَكثَرَ مِن مَرَّةٍ.

← كُنتُ أَسِيرُ ضِمنَ الأَنفَاقِ الَّتِي حُفِرَت بِالأَيّدِي بِعُمقِ عَشَـرَةِ أَمتَـارٍ تَحـتَ الأَرضِ، أَجِـدُ النَّـاسَ قَـد افتَرَشَتهَا، وَبَدأَت تَتَكَيَّفُ عَلَى نَمطِ الحَيَاةِ فِيهَا هَرَبَاً مِن جَحِيمِ الأَسدِ الَّذِي كَانَ يَستَهدِفُ الأَطفَالَ وَالمَدَنِيِّينَ قَبلَ كُلّ شَيءٍ، أَدخُلُ الأَقبِيَةَ أُشَاهِدُ وُجُوهَ الأَطفَالِ الشَّاحِبَةِ الَّتِي بَدَأَ الجُوعُ، وَالخَوفُ، وَعَدَمُ التَّعَرُضِ للهَـوَاءِ وَالشَّمسِ، وَعَدمُ اللَّعِبِ، يَأخُذُ مِنهَا رَونَقَهَا، فَبَاتَتَ الوُجُوهُ شَاحِبَةً خَائِفَةً، تَرى فِي عُيُونِ أُمَّهَاتِهَـا الخَـوفَ، فَيُضَافُ ذَلِكَ إِلَى رَصِيدِ خَوفِهَا.

وُجُوهُ آبَائِهِم كَذَلِكَ الأَمرُ لَا تَدري إِلَى مَتَى سَيَمتَدُّ ذَلِكَ العَذَابُ الَّذِي لَن تَستَطِيعَ المُفرَدَاتُ وَصفَهُ، لَم تَكُن تَكفِي كُلَّ مَوَارِدَ الغُوطَةِ لِسَدِّ عِشرِ مِعشَارِ مَا تَحتَاجُهُ النَّاسُ حِينَهَا، فَهِيَ تَحتَاجُ لِكُلّ شَيءٍ، وَلَا يُوجَدُ شَيء، كُنّا قَد اعتَدنَا عَلَى خُبزِ الشَّعِيرِ، وَمِن ثُمَّ خُبزِ العَلَفِ [أَكلُ الحَيوَانَاتِ] لِسَنَواتٍ، وَرَضِينَا بِهَا، وَلَكِن حَتَّى تِلكَ لَم نَعُد نَجِدهَا وَ لَم تَعُد تَرضَى بِنَا.

← لَم نَستَطِع حِينَهَا أَخذَ تِلكَ الثُّكنَة، وَتَمَّ الانسِحَابُ مِنهَا، وَكَانَت الضَّربَةَ القَاسِمَةَ بِالنِّسبَةِ لِلغُوطَةِ، ثُمَّ عَادَ الحِصَارُ، وَضَاقَ حَتَّى الخِنَاق، فَالعَدِيدُ مِنَ الأَحيَاءِ لَم تَعُد مَوجُودَةً، وَلَيسَ لِأَهلِهَا مَأوَىً تَعُودُ إِلَيهِ، إِضَافَةً إِلَى العَمَلِ الَّذِي قَد تَوَقَّفَ نِهَائِيًّا، وَخَسَارَةِ الأَرَاضِي الزِّرَاعِيَّةِ.

عَدَاكَ عَن الفَصَائِلِيَّة الَّتِي قَد عَمِلَت مَا عَمِلَت فِي أَهلِهَا، وَسُقُوطِ المَنَاطِقِ بِالتَّدرِيجِ، وَتَرَاكُمِ أَعدَادِ الجَرحَى بِتَنَاسُبٍ طَردِيٍّ مَعَ عَدَّادِ السَّاعَةِ، كُلّ ذَلِكَ يُضَافُ إِلَى خُذلَانِ الفَصَائِلِ بَعضِهَا بَعضًا حَتَّى آخِرِ رَمَقٍ، وَتَرَاشُقِ الاتِّهَامَاتِ فِيمَا بَينَهَا، وَالمُزَاوَدَةِ ، مَعَ يَقِينِ النَّاسِ أَنّ كُلّ الفَصَائِلِ قَد تَشَابَهَت عَلَينَا، فَلَم نَعُد نَثِقُ بِهِم بَعدَ كُلِّ تِلكَ الأَحدَاثِ، فَمَصلَحَةُ المَنهَجِ وَالفَصِيلِ فَوقَ إِسقَاطِ النِّظَامِ حَتَّى، الشَّيءُ الَّذِي أَدهَشَنِي هُوَ عَدَمُ وُجُودِ أَيّ حَلٍّ يَلُوحُ بِالأُفُقِ لِكُلِّ مَن ادَّعَى أَنَّهُ عَرَّابُ هَذَا الشَّعب.

انتَهَتِ المَعرَكَةُ، وَبِانتِهَائِهَا دُقَّ المِسمَارُ الأَخِيرُ فِي نَعشِ الغُوطَةِ، فَهِيَ الأَنَ جَـاهِزَةٌ لِتَرضَـى بِمَـا يُرِيـدُهُ المُجتمَعُ الدُّوليُّ طَبعاً بَعدَ الحَرقِ؛ لأَنّ جَذوَةَ الثَّبَاتِ مَا زَالَت مُشتَعِلَةً فِي نُفُوسِ الكَثِيرِ مِمَّن يَـرَونَ الوَاقِـعَ السَّيِّئَ، وَلَكِن لَا تُسَوِّلُ لَهُم أَنفُسُهم حَتَّى بِالتَّفكِيرِ بِتَركِ أَرضِهِم بَعدُ.

حَتَّى ذَلكَ الوَقتِ لَم تَكُن الفِكرَةُ مَطرُوحَةً، وَلَم نَكُن نَتَشَاوَرُ مَعَ أَنفُسِنَا حَتَّى بِهَا مَعَ يَقِينِنَا الثَّابِتِ بِأَنّنَا نَسِيرُ فِي ذَلكَ الاتجَاهِ..

الإِنفِصَالُ عَنِ الوَاقِعِ حِينَهَا كَانَ ظَاهِرةً غَيرَ مُفَسَّرةٍ صَرَاحَةً، وَلَا أَدرِي بِمَا كُنّا نُمَنِّي أَنفُسَنَا بِتَحقِيقِهِ بَعدَ كُلِّ الدَّلَائِلِ رُبَّمَا كَانَ الانتِمَاءُ أَو الخَوفُ مِن الأَسوأَ لَا أَدرِي بِالضَّبطِ، وَلَكِن كَانَ ذَلكَ الوَاقِعُ بِتَعقِيدَاتِهِ وَبِصُـعوبَةِ شَرحِهِ، لِتبدأَ رِحلَةُ الحَرقِ بَعدَهَا.

← بَعدَ الانسِحَابِ مِن تِلكَ الثُّكنَة بَدأَ فَوراً النِّظَام بِحملَتِهِ الَّتِي سَيُنهِي بِهَا هَذَا المَلـفَ، وَالَّـذي اتَّفَقَـت عَلَيهِ الأَطرَافُ مُسبَقاً عَلَى مَا يَبدُو، وَذَلكَ بِغَضِّ النَّظَرِ عَن كُلّ الَّذي سَيفعَلُهُ النِّظَامُ فِيمَـا بَعـدُ لِتَكتَفِـي بِمُشَاهَدَةِ مَا سَيفعَلُهُ النِّظَامُ و لَا أَدرِي مَا المُقَابِل؟

وَلَكِن أَظُنُّ أَنَّ ذَلكَ الضَّوءَ الأَخضَرَ لَم يَكُن بِالمَجَّانِ، وَخَاصَةً أَنَّ مَن أَعطَاهُ إِيَّاهُ و من ثم كَـانَ غِطَـاؤُهُ كَانَـت رُوسيَا، وَالَّتِي تُعتَبَرُ مِن أَكثَرِ الدُّوَلِ الَّتِي لَو امتَلَكَتِ الشَّمسَ يَوماً لَفَرضَت عَلَى النَّاسِ ضَـرَائِبَ عَلَـى الضَّـوءِ وَالحَرَارَةِ، فَتَارِيخُهَا حَافِلٌ بِذَلكَ، وَمِن ثُمَّ فَرضَت ضَرَائِبَ سُوءَ استِهلاكٍ وَمُخَالَفَاتٍ لِذَوبَانِ الجلِيدِ فِي أَقطَـابِ الكُرةِ الأَرضِيَّةِ نَتِيجَةَ الاحتِبَاس الحَرارِيّ، الَّتِي هِيَ مَن سَبَّبَتُه، ومن ثمَّ لتَبدأ بَعدَهَا مَرحَلَةُ بِدَايَةِ النِّهَايَة...

بِدَايَةُ النِّهَايَةِ

الفَصلُ الخَامِسُ:

بِدَايَةُ النِّهَايَةِ

قَبلَ البَدءِ بِالمَذبَحَةِ الأَخِيرةِ بَاشَرَ النِّظَامُ بِحَملَةٍ إِعلَامِيَّةٍ مُبتَذَلَةٍ يُرَوِّجُ لَهَا عَبرَ إِعلَامِهِ عَن استِقدَامِ قُوَّاتِ النُّخبَةِ تَارَةً وَقُوَّاتِ النّمرِ تَارَةً أُخرَى؛ لِكَي يَبدأَ بِالتَّمهِيدِ الإِعلَامِيِّ لتَخفِيفِ وَقعِ المَجَازِرِ الَّتِي سَيَقُومُ بِهَا بِطَرِيقَةٍ سَاقِطَةٍ تفوق ذِلكَ المُجتَمَعِ الدُّولِيِّ الَّذي يُحيطُ بِنَا.

كَانَت تَقَارِيرُهُ الَّتِي كُنتُ أُتَابِعُهَا عَن كَثَبٍ تَحكِي عَن: حَرقٍ، وَقَتلٍ، وَإِبَادَةٍ، وَتَطهِيرٍ!

الاستِغنَاءُ عَن نِصفِ مِليُونٍ مُقَابِلَ أَن يَعيشَ مَن تبقَّى فِي دِمشقَ بِذَلكَ السَّلامِ المَوهُومِ، لَا أَدرِي مَن كَانَ يَقصِفُ مَن؟ وَمَن كَانَ يُقضُّ مَضجَعُهُ طِيلَةَ السَّنَواتِ السَّبع ؟ وَمَن قد حُوصِرَ طِيلَةَ السَّنَواتِ الخَمس، وَلَكنَّ الخَرِيطَةَ تَشهَدُ على مَا قَد جَرَى إِن لَم تَكفِ كُلُّ تِلكَ المَشَاهِدِ التي مَلأَت مَوَاقِعَ التَّوَاصُلِ الاجتِمَاعِيِّ.

كَانَت الجُمَلُ الَّتي تَنطِقُ بِهَا أَلسِنَةُ المُؤَيِّدِينَ هُنَالكَ وَالَّذِينَ يَلتَقُونَ بِهِم صَادِمَةً لَنَا نَحنُ أَبنَاءَ الغُوطَةِ، كَانَت تَقطُرُ سُمًّا كَانَ يَشحَذُ لِسَانَ مُؤَيِّدِيهِ بِأَفضَلَ مِسَنٍ طَائِفِيٍّ سَادِيٍّ .

كُنَّا نُدرِكُ أَنَّ تِلكَ الدُّمى الَّتي يَتمُّ تَلقِينُهَا كُلَّ كَلِمَاتِ الحِقدِ لَم تَكُن مِنَّا يَوماً وَلَا تَنتَمِي لَنَا، كَانَ الغَرَضُ مِن ذَلكَ زِيَادَةُ الهُوَّةِ بَينَ أَهلِ الغُوطَةِ وَدِمشقَ وَتَبرِيرِ أَيِّ عَمَلٍ إِجرَامِيٍّ يَقُومُ بِهِ النِّظَامُ فَهُوَ لَا يَزَالُ فِي رَيبَةٍ مِن أَوَاصِرِ القُربَى بَينَ المَنطِقَتَينِ حَتَّى آخرِ اللَّحظَةِ.

لِذَلكَ كَانَ لَا بُدَّ مِن امتِصَاصِ صَدمَةِ المَوتِ الجَمَاعِيِّ، وَالَّتِي بَاتَت لا تَكَادُ تُذكَرُ عَلَى القَنَوَاتِ الإِخبَارِيَّةِ العَالَمِيَّة وَالعَرَبِيَّةِ إِلَّا كَعَدَدٍ يَظهَرُ بِشَكلٍ خَاطِفٍ أَسفلَ الشَّاشَةِ، وَذَلكَ لاعتِيَادِ أَمرِ المَوتِ وَالبَرَامِيلِ عَلَى أَهلِ الغُوطَةِ، وَالَّتِي تَبعُدُ مِئَاتِ الأَمتَارِ عَن سَاحَةِ العَبَّاسِيِّينَ بِدِمَشقَ.

كَانَ النَّاسُ فِي الغُوطَةِ قَد استُهلِكُوا، وَوَصَلُوا إِلى مَرحَلَةٍ قَالَ النَّاسُ فِيهَا: رَبَّنَا عَجّل لَنَا العَذَاب، لا يَهِمُّ الحِسَابُ أَو العِقَابُ حَتَّى؛ الأَهَمُّ مِن ذَلِكَ أَن تَنتَهِيَ تِلكَ المَأسَاةُ.

نَعَم!!!

وَصلنَا إِلَى تِلكَ الحَالَةِ مِنَ الاستِسلَامِ فلَم يَبقَ لنَا شَيءٌ سِوَى بَعضٍ مِن الهَوَاء، كُنَّا نَتَلَقَّفُه مِن بَينِ الغُبَارِ، ودُخَانِ القَذَائِف، اشتَدَّت الحَملَةُ وَتَوَسَّعَت لِتشمَلَ كُلَّ بَلدَاتِ الغُوطَةِ الشَّرقِيَّة بَعدَ ذَلكَ التَّمهِيدِ الإِعلَامِيّ.

← مَا يُدهِشُني حقاً حِينَهَا كَميّةُ الوَقَاحةِ الدُّوليِّةِ المُمَارَسةِ آنَذَاك، فَهِيَ تَرى، وَتسمَع، وَتُشَاهِد، وَتَدعُ كُلَّ شَيءٍ كَمَا هُوَ، يَبدُو أَنّ نِفطَ لِيبيَا أغلَى مِن الدِّمَاء في سوريا في مَنظُورِ الدُّوَلِ الَّتِي تَشجُب وَالتي تَدَخَّلَت في لِيبيا فَورَ تَضَرُّرِ مَصَالِحِهَا.

لَم يَعُد القَبُول وَالرِّضَى بِمَا يَجري ضِمنِيًّا هو اللافِتُ للنَّظَر ، بل أضحَى أقلَّ مِن أن يَتِمَّ ذِكرُهُ حَتَّى فِي بَيَانَاتِهِم المَلِيئَةِ بِمَشَاعِرِ الأَسَى وَالحُزنِ عَلَى الضَّحَايَا، وَالتَوصِيَاتِ التي يَجِبُ أن تَلتَزِمَ الأَطرَافُ المُتَنَازِعَة بِها في الحُرُوبِ الوَردِيَّةِ المَكتُوبَةِ لَدَيهِم، ((سكَتَ العَالَم وَنَحنُ نَختَنِقُ بِدِمَائِنَا)).

لـ بَدأَتِ البَرَامِيلُ وَالصَّوارِيخُ، وَكُلُّ مَا يُمكِنُ أن يَنفَجِرَ فِينَا يَنهَالُ عَلينَا بِالمِئَات؛ بَل بِالآلَافِ لَا يَستَثنِي الحَجَر، وَالبَشَر، وَالشَّجَر، بِطَرِيقَةٍ لَا تَكَادُ تُوصَفُ حَتَّى، وَأَصبَحَت مَقَاطِعُ الفِيدِيُو سَخِيفَةً أَمَامَ هَولِ المَنظَر..

اضطُرَّ أَهلُ الغُوطَةِ للاتِّخَاذِ مِنَ الأَقبِيَةِ وَالكُهُوفِ وَالأَنفَاقِ وَالحُفَر مَأوًى لَهُم، فقَد قَامت بَعضُ العَوائِلِ مُسبَقَاً بِتجهِيزَاتٍ تَحتَ مَنَازِلهَا عَلَى شَكلِ حُفَرٍ تَتَّسِعُ لَهُم لِكَي يَستَمِرُّوا بِالحَيَاةِ تَحتَ الأَرض إِذَا مَا انعَدَمَت فَوقَهَا.

كَانُوا يُجَهِّزُونَهَا بِإِنَارَةٍ بَسِيطَةٍ وَخَزَّانِ مَاءٍ صَغِيرٍ وَبَعضِ الأَدَوَاتِ الَّتِي تَحفَظُ لَهُم بَقَاءَهُم فِيهَا، فَلَا نَدرِي كَم سَتَمتَدُّ هَذِهِ الحَملة، الَّتِي سَبقَهَا حَملَاتٌ كَثِيرَةٌ بَاءَت بِالفَشَل.

قُصِفَت فِي أوَّلِ أسبُوعٍ مِن الحَملَةِ أغلَبُ المَشَافِي وَالنُّقَاطِ الطِّبيَّةِ وَمَرَاكِزُ الدِّفَاعِ المَدنِيّ وَخَرَجَت عَن الخِدمَةِ .

أذكُر أنّ العددَ كَان [١٨ مَشفًى رَئِيسيّ] خَرجَ مِنهَا [١٤ مَشفَى] إن لَم تَخُن الذَّاكِرَةُ، وَبَلَغَ عَدَدُ الجَرحَى خِلالَ الأسبُوع الأوَّل [٢٤٠٠جَرِيح] بِشكلٍ تَقرِيبِيّ؛ لأنَّ الوَضعَ أصعَبُ مِن أن نُحصِيَهُ، فَقَد تَمَّ ذِكرُه عَلَى أحدِ المَجمُوعَاتِ الطِّبيَّةِ، وَأحبَبتُ أن أنقُلَهُ للاستِئنَاس، وَلِتَقرِيبِ الصُّورَة.

هَذَا الرَّقَم الَّذِي تَعجَزُ عنهُ مَشافِي مُجهَّزَةٌ بِأحدَث التَّجهِيزَاتِ عَن استِيعَابِهِ عَدَاكَ عَن الوَضعِ الجَحِيمِيّ آنَذَاكَ، الَّذِي لا يَسمَحُ حَتّى لِسَيَّارَاتِ الإسعَافِ بِأن تَتَحرَّكَ حَيثُ كَانَت الهَدفَ الأشهَى لِطَائِرَاتِ ذَلكَ المُجرِم، وَكَثِيراً مَا كُنَّا نَعجَزُ عَن الوُصُولِ إلَى الجَرحَى إلَّا بَعدَ سَاعَاتٍ وَذَلكَ لانقِطَاعِ السُّبُلِ إليه.

الأمرُ البَدَيهِي حِينَهَا، وَالغَرِيبُ أنَّهُ لَم يَستَهدِف أيَّ جَبهَةٍ مُلَاصِقَةٍ أو مَنَاطِقَ اشتِبَاكٍ بِالقَصفِ، حَيثُ كَانَت الأمَاكِن الأكثَرَ أمَناً حِينَهَا.

← كَانَت طَرِيقَتُه بِالقِتَال أجبَنَ مِن أيِّ طَرِيقَةٍ عَرفَهَا التَّارِيخُ، فَقَتلُ النَّاسِ وَالأطفَالِ وَإحرَاقِهِم، تلكَ النِّقطَةُ الوَحِيدَةُ الَّتِي تُضعِفُ مِن عَزمِ أهلِ الغُوطَةِ، وَثُوَّارِهَا، وَالَّذِينَ يُحَاوِلُونَ كَعَادَةِ كُلِّ حَملَةٍ أن يَخرُجُوا بِأقَلِّ الخَسَائِرِ المُمكِنَة.

لَم تَبقَ لَدينَا مَرَاكِزُ للدِّفَاعِ المَدَنِيّ وَلَا مَشَافِي تَكفِي هَذَا القَصفَ التَّتَرِي مِنذُ الأُسبُوعِ الأَوَّلِ، لَم يَتَوقَّفِ القَصفُ لَحظَةً وَاحِدَةً فَلَيلُنَا أَضحَى نَهَاراً مِن حِمَمِ القَذَائِفِ وَالرَّاجِمَاتِ، وَبَدأَت تَزِيدُ نِسبَةُ العَجزِ لَدينَا شَيئَاً فَشَيئَاً.

نُحَاوِلُ استِيعَابَ ذَاكَ السَّدِ المُنهَارِ مَا استَطَعنَا، واحتِوَائِه، فَالطَّعَامُ الَّذِي كَانَ كِفَافَاً أَضحَى مَعدُومَاً، واجتَاحَت المَجاعَةُ أَطفَالَ الأَقبِيَةِ فِي الغُوطَةِ.

لم تَعُد كُلَّ مَوَارِد العَالَم كافِيةً لتَسدُّ رَمقَ أَطفَالِنَا الَّتِي بَدأَت تَشحَبُ مِنَ الخَوفِ وَالجُوع، عَدَاكَ عَنِ الأَطفَالِ الرُّضَّع، وَالَّذي جَفَّ مَنبَعُ الحَيَاةِ لَديهِم؛ لانعدام الحَدِّ الأَدنَى مِنَ الغِذَاءِ للأُمَّهَاتِ المُرضِعَاتِ، وَفِقدَانِ مَادَّةِ حَلِيبِ الأَطفَال.

حَدِيثُنَا يَشمَلُ أَعدَاداً لَا يُمكِنُ لَكَ تَخَيُّلُهَا إِن لَم تُعَاينَهَا، وَلَا يُمكِنُ لَكَ أَن تَتَصَوَّرَ حُدُوثَهَا يَومَاً فِي عَصرِنَا بِوُجُودِ كُلِّ تِلكَ القوانين، وَكُلِّ تِلكَ الأُمم المُتَّحِدَة.

← أضحَى القَبُو مَطبَخَاً عَامَّاً، مَلعَبَاً للأطفَالِ، مَهجَعَاً جَمَاعِيَّاً، مكَانَاً لاستِيعَابِ الجَرحَى، بَعدَ استِهدَافِ النُّقَاطِ الطِّبيَّة وَالَّذينَ كنَّا نَضّطَرُ لإخلائِهم مِنَ المَشَافِي خَوفَاً مِن استِهدَافِهَا، الأمرُ الَّذي قَد حَدثَ بِشكلٍ مُتَكَرِّرٍ فِي كَثِيرٍ مِنَ النُّقَاطِ الطِّبيَّةِ وَاستَشهَدَ العَديدُ مِنَ الجَرحَى فِي الاستِهدَافِ الثَّانِي للمِشفَى!

حَيثُ كُنتُ شَاهِداً عَلَى أكثَرَ مِن استِهدَافٍ لِلمَشَافِي حِينَهَا، وَرَأيتُ شَهِيداً مَاتَ مَرَّتَين، كَانَ مَشهَداً أقسَى مِن كُلِّ الوَصفِ، كَانَ المُعَدَّلُ الوَسَطِي فِي الغُوطَةِ فِي الحَملَةِ بَينَ [٧٠ –١٠٠ شَهيداً] يَومِيَّاً، أظنُّ أنَّ هُنَالِكَ تَوثِيقَاتٍ مُسَجَّلَةٍ عَلَى سَبِيلِ التَّقرِيبِ لِعَدَدِ الجَرحَى، فَلَم تَعُد هُنَالِكَ سِجِلَّاتُ قَبُولٍ، فَالغُوطَةُ كُلَّهَا تَرزَحُ تَحتَ سَعِيرِ النَّارِ، وَ لَا مَجالَ للعَدِّ حَتَّى .

مِنَ المَشَاهِدِ الَّتِي أحبَبتُ أن أُلقِيَ الضَّوءَ عَلَيهَا هُنَا، هُوَ ذَاكَ المَشهَدُ الَّذِي تَكَرَّرَ كَثِيراً، وَمَا زِلتُ أذكُرُه بِتَفَاصِيلِه،

فَبعدَ استِهدَافِ المَشَافِي وَانقِطَاعِ الطُّرقَاتِ، كَانَ الجَرِيحُ يَتِمُّ إسعَافُهُ إلَى أقرَبِ قَبوٍ مِن مكَانِ إصَابَتِه؛ لِحِمَايَتِهِ مِنَ القَصفِ المُتَكَرِّرِ أوَّلَاً، وَللتَّفكِيرِ بِحَلٍّ لَهُ لاستِحَالَةِ وُصُولِ سَيَّارَاتِ وَطَوَاقِمِ الإسعَافِ إلَيه.

كَانَتِ أقبِيَةُ المدَنِيَّةُ مَحَطَّاتَ إسعافٍ الأكثَرَ دَمَويَّةً عَلى الإطلاقِ، وَالَّتِي شَاهَدتُهَا ضِمنَ هَذَا العَمَل، كَانَتِ المَشهَدَ المُرعِبَ الَّذِي عَايشتُهُ طِيلَةَ فَترَةِ حَيَاتِي داخلَ الغُوطَة، لَم تَكُن الأقبِيَةُ مُجَهَّزَةً بِمُقَومَاتِ الحَيَاةِ حَتَّى تُجَهَّزَ بِالمُستَهلَكَاتِ الطِّبِيَّةِ وَأدَوَاتِ الإسعَافِ الأوَلِيَّةِ، يَقومُ القَاطِنُونَ في القَبوِ بِمَا استَطاعَوا وبما يملكون من خِبرَةً، وَلَو كانت بَسِيطَةً لتلقفِ بَعضٍ من أنفَاسِ الجَرحى ، كَي لَا تَفلُتَ مِنَّا إلَى السَمَاء.

- ✓ أذكُر أنّ سِلسلَةَ الأنفَاقِ تَصِلُ إلَى المَشفَى الرَّئِيسيّ فِي مَدِينَتِي، وَلَكِن كَمِيَّةُ البَرَامِيلِ الَّتِي مَسحَتِ الأرضَ مِن فَوقِهَا كَانت كَفِيلَةً أن تُغلِقَ عَلينَا شِريَانَ الحَيَاةِ فِي المَدِينَة، كَانَت الإسعَافَاتُ تَجرِى أَمَامَ مَرأى الأطفَالِ وَالنِّسَاءِ بِطَرِيقَةٍ لَا يُمكِنُ تَصَوُّرُهَا، فَالطِّفلُ يَسمَعُ أَنِينَ الجَرحَى وَحَشرَجَاتِ المَوتَى، أَضِف إِلَى ذَلكَ رَصِيدَ الجُوعِ، وَالحِرمَانِ، وَالخَوفِ؛ لَيسَ تهويلاً بِالمَوقِفِ – صَدِّقنِي – فَالمَوقِفُ كَانَ أرعبَ مِن أن أَصِفَهُ، كَانَت الإصَابَاتُ الَّتِي تَدخُل القَبوَ مُتَنَوّعَةً، وَلَكِن أكثَرَ مَا يَلفِتُ انتِبَاهِيَ تِلكَ الإصَابَاتُ مِن فِئَةِ البَتر، وَالَّتِي كَانَت تَفرِضُ عَلَى الأُمَّهَاتِ فِي القَبوِ مَنعَ أَطفَالِهَا مِنَ المُشَاهَدَةِ، الَّذِينَ يَشُدُّهُم الفُضُولُ لِرُؤيَةِ تِلكَ المَشَاهِدِ، وَالَّتِي سَتَحفَظُهَا ذَاكِرَتُهُم، وَسَتُحفَرُ بِهَا، وَلَن يَنسُوهَا مَعَ التَّقَادُم ..

* كَانَت الأَقبِيَةُ أيضاً مكاناً للتَّكفِين، فَالطَّرِيقُ إِلَى التُّربَةِ يُكَلِّفُ أكثَرَ مِن شَهِيدٍ كَي يَصِلَ الشَّهيدُ الأَسَاسِيُّ لِمَثوَاهُ الأَخِير، كَثِيراً مَا كُنَّا نَستَيقِظُ فِي اليَومِ الثاني أو إن صَحَّ التَّعبِيرُ كَثِيراً مَا كَانَت تُشرِقُ عَلينَا الشَّمسُ لنَتَفَقَّدَ الشَّوارِعَ، وَنَتَلقَّفَ الجُثَثَ المُرمَاةِ عَلَى قَارِعَتِهَا، وَالَّتِي لَم نَستَطِع انتِشَالَهَا لَيلاً أو بِالأَحرَى لَم نَعرِف أَنَّها قَد صَعَدَت إِلَى بَارِئِها لَيلاً؛ لأَنَّ تِلكَ الأَيَّام كَانَت تُذهِلُنَا عَن أَنفُسِنَا حَتَّى، وَكَأَنَّنَا سُكَارَى المَوتِ، فَالطَّائِرَاتُ تَتَخَطَّفُنَا مِن دُونِ أن نُدرِكَها.

* كَانَت الأَقبِيَة هِي حَيَاتُنَا الَّتِي يَجِبُ أن نَتَأَقلَمَ مَعَها، وَيَجِبُ أن نُحَاوِلَ مَا استَطَعنَا الاعتِيَادَ عَلَيهَا؛ لأَنّنَا كُنَّا نَعتَقِدُ بِسذَاجَتِنَا أنّ المُجتَمَعَ الدُّوليّ لَن يَسمَح بِأن تَستَمِرَّ الحَملَةُ أكثَرَ مِن خَمسَةَ عَشَرَ يَوماً هَذَا إن طَالَ الأَمرُ، فَالأَمرُ مُحرِجٌ نَوعاً مَا أَمَامَ شُعُوبِهِم إِذَا مَا استَمَرَّتِ المَذبَحَةُ، وَمَندُوبُ النِّظَامِ لَا يَزَالُ عَلَى رَأسِ عَمَلِهِ فِي الأُمَمِ المُتَّحِدَة.

* بَدأَتِ الحَياةُ تُجبِرُنَا عَلَى التَّكيُّفِ مَعَ المَوتِ، فَالتَّكيُّفُ سِمَةُ البَشَرِ، لَم أَكُن أَظُنُّ يَوماً أنّ البَشَرَ يَمتَلِكُون تِلكَ القُدرَةَ عَلَى التَّعَايُشِ مَع كُلِّ ذَلكَ الظَّلَامِ، كُنتُ أَخَافُ أن نَعتَادَهُ حَقّاً، فَمَن يَصعَدونَ للسَّمَاءِ لَم يَكُونُوا أَرقَاماً فَقَط، فَهُم يَملِكُونَ مُقَلاً تَبكِيهِم، وَقُلُوباً تَكتَوِي بِهِم.

← بَدأتِ النِّسَاءُ بِبَعضِ النَّشَاطَاتِ ضِمنَ الأَقبِيةِ لِتَسلِيةِ أَطفَالِهم، وَتَغييراً لِلجَوِّ الَّذي يُحيطُ بِهم، لَم يَستَطِيعُوا إِخفَاءَ الأَصوَاتِ خَارِجَ أَسوَارِ القَبوِ، وَلَكِن..... كَانُوا يُحَاوِلُون.

بَدأت بَعدَها الكَوادِرُ النِّسائِيَّة فِي الغُوطَةِ تَكبُرُ وَتَعمَلُ ضِمنَ إِمكَانِيَّاتِهَا المَحدُودَةِ، حَاوَلَت بَعضُ الفَعالِيَّاتِ المَدَنِيَّة المُسَانَدَةَ، وَلَكِنَّ الوَاقِعَ أَعقَدُ مِنَّا جَمِيعَاً، كُلُّ مَن يَخرُجُ مِن قَبوِهِ هُوَ هَدَفٌ لِلطَّائِرَاتِ الرُّوسِيَّةِ وَالبَرَامِيلِ العَشوَائِيَّةِ، وَأيِّ شَيءٍ يُمكِنُ أَن يُلقِيه الأَسدُ مِنَ السَّمَاءِ، حَتَّى وَلَو لَم تَخرُج فَأَنتَ هَدفٌ أَيضاً، فَقد استَهدَفَ الكَثِيرَ مِنَ الأَقبِيَة وَ ارتَقَى دَاخِلَ الأَقبِيةِ الكَثِيرَ مِنَ الشهَداءِ.

← فِي ذَلكَ المُجتمَع الجديدِ علينَا، بدأت تظهَرُ حَاجيّاتٌ كُنّا نقُومُ بِها فِي بُيوتِنا الخَاصَّةِ مِن دُون أدنَى تَفكِيرٍ بِأَهمِيَّتِهَا، فَالخُصُوصِيَّةُ المُجتمَعيةُ للعَائِلَةِ لَهَا حُدودٌ دُنيَا لَا يُمكِنُ التَّغَاضِي عَنهَا، وَاحتِيَاجَاتُ الأَطفَالِ لَا تَنتَهِي، وَ الجَوُّ السَّائِدُ كَان يَضّطَرُكَ أَن تَتَنَازَلَ عَن كُلِّ تِلكَ الأُمُورِ لَا لِشَيءٍ؛ إِنَّما للحفَاظِ علَى حَيَاةِ أَطفَالِك، فَلَا قِيمَةَ لِحَجمِ فِقدَانِ الخُصُوصِيَّةِ إِذَا مَا قُورِنَت بِفَلَذَاتِنَا، انخَفَضَت أَكثَرُ الاحتِيَاجَاتِ إِلَى الحَدِّ الأَدنَى الَّذِي كُنَّا نَقُومُ بِهِ، كَالنَّظَافَةِ الشَّخصِيَّةِ؛ لِشُحِّ المِيَاهِ، وَنَظَافَةِ المَكَانِ، فَيكفِي أَن يَمرَضَ أَيُّ طِفلٍ فِي القَبوِ لِيَكُونَ بُؤرَةَ وَبَاءٍ لِغَيرِهِ مِنَ الأَطفَالِ، يَكفِي أَن يَسعُلَ أَو يَعطِسَ لِتَنتَشِرَ المُعَانَاةُ بَعدَهَا .

فَكيفَ لَنَا أَن نُوَضِّحَ لِلمَرضِ وَضعَنا الحَاليّ، وَهَل يُمكِنُ لنَا أَن نُقَدِّمَ لَهُ طَلَبَ استِرحَامٍ لِيُشفِقَ لِحَالَةِ أَطفَالنَا هُنَاك فَجِوَارُهُ فِي القَبوِ أَقلُّ ضَرَرَاً مِن جِوَارِ الأَسدِ فَوقَ الأَرضِ!

← بَدأت حملَاتٌ ضِمنَ الأقبِيةِ بِالإمكَانِيَّاتِ المُتَاحَةِ، وَالَّتِي كَانَت جَبَّارَةً فِي ذَلكَ الوَقتِ، وَلَكِن لَم تَكُن لِتظهِرَ ذَاكَ الفَارِقَ الكَبِيرَ، كَانَ الشُّعُورَ حِينَهَا أَنّنَا نَقومُ بِمُقَاومَةِ السَّيلِ ذَاكَ بِقَليلٍ مِنَ القَشِّ، وَلَكِن تِلكَ كَانَت حِيلتُنَا!

أظنُّ أنَّ دُوَلاً تَعجَزُ عن استِيعَابِ نِصفِ مِليُونِ إنسانٍ فَجأةً لَجَؤُوا إِلَى الأقبيةِ بِسبَبِ القَصفِ فَمَا بَالُك بِالغُوطَةِ المُحَاصَرَةِ مِنذُ سَنَوات،

أذكُرُ مَرَّةً أنَّ فَرِيقاً مِن تِلكَ الكَوادِرِ المَوجُودَةِ أقَامَ حَفلةً للأطفَالِ فِي أحدِ الأقبيَةِ، وَفِعلاً وَرُغمَ كُلِّ الظُّرُوفِ استَطَاعُوا القِيامَ بِهَا -تَخَيَّل- استَطَاعُوا ذَلكَ، وَالحِمَمُ فَوقَهُم تِلكَ هِيَ الإِرَادَةُ الَّتِي كُنَّا نَملِكُهَا، وَالَّتِي كَانَت تَدفَعُنَا لِقَبُولِ كُلِّ ذَلكَ الخُذلَانِ مِن أجلِ أن يَحيَا مَن بَعدَنَا بِلَا بَعثٍ.

وَتَفاجَأتُ حِينَهَا بِالصُّورِ الَّتِي شَاهدتُهَا، وَحَجمِ العَطَاءِ المُقَدَّمِ مِن قِبَلِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ مَازَالُوا يُقَاوِمُونَ حَتَّى الرَّمقِ الأَخيرِ عَلَى كُلّ الأصعَدَةِ ابتِدَاءً مِن مُقَاوَمةِ النِّظَامِ حتَّى تَرفِيهِ الأَطفَالِ، وَتَأمِينِ مَا يَستَطِيعُونَ لَهم.

← كَانَ مُجتَمَعاً ثَائِراً عَظِيمَاً بكُلّ مَا تَعنِيهِ الكَلِمَةُ مِن مَعنًى، فَالكُلُّ يَبحَثُ عَن مَكَانٍ لَهُ يَسُدُّ فِيهِ حَاجَةً قَد تُحدِثُ فَارِقَاً إِذَا مَا اجتَمَعَت مَعَ بَعضِهَا، وَلَكِنَّ ثُقُوبَنَا كَانَت أَكثَرَ مِن استَطَاعَةِ الدُّوَلِ حَتَّى، وَالنِّهَايَةُ لَم تَكُن كَمَا المَوجُودَةِ فِي نِهَايَةِ أَفلَامِ دِيزنِي السَّعِيدَة.

فَهَذَا القَبو مِثلَ مَا تَمّ تَوثِيقُ الحَفلَةِ فِي دَاخِلِه، تَمَّ تَوثِيقُ قَصفِهِ بَعدَ أَيَّامٍ، وَاستَشهَدَ الكَثِيرُ مِنَ الأَطفَالِ الَّذِينَ أُقِيمَت لَهم الحَفلَةِ، حَيثُ أَذكُرُ أَنَّ العَدد كَان [١٤ طِفلاً شهيداً] .

↵ كُنتُ شَاهِداً عَلَى هَذِهِ القِصَّة لِذَلِكَ سَردتُهَا، وَلَربَّمَا تَكَرَّرت مِثلُ هَذِهِ الحَادِثَةِ فِي بَاقِي مُدُنِ الغُوطَةِ، وَلَم تُوَثَّق، وَرُبَّمَا قَد حَدَثت جَرَائِمُ أَقسَى مِنَ الَّذِي قَصَصتُ عَلَى الرُّغمِ مِن قَسَاوَتِهَا إِلَّا أَنّ النِّسيَانَ وَعَدَمَ التَّوثِيقِ كَانَ مِن أَكبَرِ جَوَائِزِ النِّظَام..

↵ مِن جَانِبٍ أَخرَ كَانَت قَد بَدَأَتِ الكَوادِرُ دَاخِلَ الغُوطَةِ، برفع جَاهِزِيَّتِهَا مِع بِدَايَاتِ الضَّخِ الإِعلَامِيِّ الدَّمَوِيِّ الَّذِي مَارَسَهُ النِّظَامُ قَبلَ بَدءِ حَملَتِه عَلَى كُلِّ الأَصعِدَةِ وَلَكِن، وَمِن وُجهَةِ نَظَرِ مَن رَأَى حَجمَ وَهَولَ القَصفِ أَنَّهُ وَلَو تَجَهّزنَا مِئَةَ عَامٍ لَن نَستَطِيعَ أَن نُواجِهَ حَالَةَ الحَرقِ تِلكَ، فَالأَمرُ كَانَ إِمَّا أَن تَمُوتُوا، أَو، أَو ماذا؟ هَل مَازِلنَا نَحلُمُ بِحُكمٍ فِيدرَالِيٍّ لِلمَنطِقَةِ، أَو مَنطِقَةٍ أَمنَةٍ، أَو مَنزُوعَةِ السِّلَاح أَو أَيٍّ مُسمًّى كَان!!

← كَانَ الخَلَاصُ مِن هَذَا الجَحِيمِ هَدَفُنَا تَحتَ أيّ طَرحٍ أو مُسَمًّى عَدَا أن نَعِيشَ مَعَ النِّظَامِ تَحتَ سَقفٍ وَاحِدٍ حَتَّى وَلَو كَان، وَلَو كَان مَاذَا؟ حَتَّى وَلَو كَان "التَّهجِيرُ"، الَّذِي لا نُرِيدُ حَتَّى إمرَارَهُ عَلَى ألسِنَتِنَا؛ لأنّ أطفَالَنَا أغلَى مِن الأرضِ فِيمَا إذَا كَانَت المُقَارَنَةُ صَحِيحَةً.

طَبعَاً تِلكَ الفِكرَةُ لَم تَكُن مُتَدَاوَلَةً بَينَنَا حتَّى مَضَى أكثَرُ مِن [٣٠ يَومَاً] للحَملَةِ الَّتِي أعقَبَت [٦٠ يَومَاً] مِن مَعرَكَةِ "إدَارَة المَركَبَاتِ"، وَالَّتِي أعقَبَت خَمسَ سَنَواتٍ مِنَ الحِصَارِ، كُلِّ تِلكَ التَّرَاكُمَاتِ كَانَت كَفِيلَةً بِأن تَخرُجَ تِلكَ الكَلِمَةُ الَّتِي لا يَرغَبُ بِهَا أكثَرُنَا، لَا أقُولُ كُلُّنَا.

← كَانَت مَلَامِحُ الطُّرقِ تَتَغَيَّرُ بين لَيلَةٍ وضُحاها ، أو بالأحرَى كُلُّ بِضع سَاعَاتٍ مِن شِدَّةِ القَصفِ، لَم نَعُد نَستَطِيعُ أن نُسَيِّرَ سيَّارَاتِ الإسعَافِ، لأنَّ طَائِرَاتٍ لم يُوقِفها قَانُونٌ دُولِيّ مِن قِبلُ ــ وَالَّذِي أظُنُّهُ كَانَ يَمنَعُ النَّابَالم وَالسَّارين ــ لن يَمنَعَها الأنّ مِن استِهدَافِ الجَرحَى وَالمَدَنِيِّينَ عَدَاكَ عَن كَثرَةِ الرَّدم فِي الطُّرقَاتِ الَّتِي مَلأت الغُوطَةَ، فأضحت كَومَةَ رَمَادٍ وَحُطَامَ مَدِينَةٍ وَبَقَايَا شَيءٍ كَانَ مِن قَبلِ ذَلِكَ مِن أجمَلِ بِقَاعِ الدُّنيَا.

← فِعلَاً إنّ الحُرُوفَ تَمُوتُ حِينَ تُقَالُ، وَإنَّ الوَاقِعَ يَفقُدُ مَاهِيَّتَهُ عِندَ وَصفِهِ بِكلِمَاتٍ لا تُعطِيهِ حقَّهُ كما في الوَاقِعِ، فَلِسَانُ المَقَال لَن يَستَطِيعَ وَصفَ حقيقةِ الحَالِ، وَلَا تَجسِيدَ الشُّعُورِ حِينَهَا، كَانَت عِلبَةُ الدَّواءِ وقتها تُوَزَّعُ عَلَى أطفَالِ القَبوِ بِطَرِيقةٍ لَم يَذكرْهَا التَّارِيخُ الطّبِيُّ، وَلا تَرَاجِيدِيَّاتُ سُوفُوكلِيس حتَّى، فَالعِلبَةُ الوَاحِدةُ تُقسمُ عَلى عددٍ مُعيَّنٍ مِن الأطفالِ.

↳ كَانَ الجَدَلُ البِيزَنطِيُّ حِينَهَا يَدورُ بينَ الفَصائِلِ الَّتِي لَا تَزَالُ تَحلُم بِوُعودٍ لَم وَلَن يَتِمَّ اعطَاؤُهَا لهَا أبداً، فَالأَسَدُ قَد سَبقَهُم، وَتَنَازَل عَن كُلِّ شَيءٍ عَلَى مَا يَبدُو، لَا يَمكنُنَا أن نَتَخيَّل مَا قَد تَنَازَلَ عَنهُ حتَّى، فَقد أدَّى المُهمّةَ بِتَسلِيم سُوريَّا عَلى حَافَّة الهَاوِيَةِ أو حتَّى فِي قَعرِ الهَاوِية، بِحُجَّةِ المُمَانَعةِ وَالمُقَاوَمةِ وَإظهَارِ بُطولَتِهِ عَلَى الأطفَالِ الَّذينَ لم يُدركُوا بَعدُ حَجمَ المَكرِ الدُّوليِّ، وَالخِدَاعِ السِّياسيِّ، وَالمُتَاجَرةِ بِالقَضِيَّة.

← بَعدَ كُلِّ مَا تَقدَّم ذِكرُهُ مِن حِصَارٍ وَتَجوِيعٍ وَ قَصفٍ وَ تَمهِيدٍ وَ حَرقٍ، بَدأت قُوَاتُ النِّظَامُ بِغِطَاءِ رُوسيٍّ مَرحَلَتَهُ الثَّانية، وَذلكَ بِالتَّقدُم مِن مَحَاوِر الاقتِتَال السَّابِقَة للفِصَائِل [أي مِن حُدُودِ الفَصلِ بَينَ المَمَالِكِ الوَهمِيَّةِ لأُمرَاءِ الحَربِ فِي الغُوطَةِ] بَعدَ أن انتَهى مِن قَضمِ المَناطِقِ الزِّرَاعِيَّةِ حَيثُ بَدأ بِالمُدنِ، فَكَانَت "بيتُ سَوى" وَ مِن ثُمَّ "مِسرَابا" الخَطَّ الفَاصِلَ بينَ القِطَاعِ الشِّمَالِيّ، وَالقِطَاعِ الأوسَطِ، وَكَانَت المَنطِقَةُ أيضَاً بينَ: "حَرستَا" وَ"دُومَا" أُولَى الخُطُوطِ الَّتِي تَقَدَّمَ مِنهَا ليقطَعَ المَقطُوعَ أصلاً، وَيفصلَ كُلَّ مَنطِقَةٍ عَلَى حِدةٍ، وَ لِتَسهُلَ عَلَيهِ السَّيطَرةُ، وَمِن ثُمَّ المُفاوَضَات.

ـ بَدأتِ المَناطقُ الزّراعيّةُ تتَهاوَى بُسرعَةٍ فِي السُّقُوطِ، وَكَانَ يُدركُ أنّ المُدنَ سَتُكلّفُهُ كثيـراً، فَأهلُهـا مُحصَّنُونَ نَوعاً مَا، وَجَبهاتُهَا أصعبُ مِن غَيرِهَا،

وَخَاصَّةً فِي تَجَارُبِهِ السَّابِقَة الَّتي خَاضَهَا بِأُتُونِ مَعارك "جَوبَر العِزّ" وَ "القَابُونِ" وَ "عينِ تَرمَا" الَّتي لَم يَستَطِع بِكُلّ مَعدَّاتِه وَعِتَادِهِ التَّقَدُم فِيها نَاهِيكَ عَن خَسائِره الضَّخمَةِ فِي العَسكَرِ وَالعَتَاد.

كَانَ هُنالِكَ مُحاوَلاتٍ لِصدِّ النِّظَام فِي تلكَ الحَملَةِ لِرفعِ المَعنَوِيَّاتِ المُنهَارَةِ، فَالجَميعُ تَركنَا عُرضَةً للنَّهشِ مِن أنيَابِ الطّيرَانِ الرُّوسِيّ، ولكنَّ الحَقيقَةُ أنَنَا هُجِّرنَا يَومَ رَكِبَت دَارَيَّا البَاصَ الأول .

بِدايَةً انهارَتِ جَبهَاتِ "النَّشَّابِيّةِ" وَ "الشِّيفُونِيَّة" كَونَها مُدنٌ زِرَاعيَّةٌ، وَ زِدْ عَلَيها أنَّ سِيَاسَةُ الأَرضِ المَحرُوقَةِ فِيهَا تُعطِي نَتِيجَةً، وَمن ثمٍّ بدأ الزَّحفُ حتَّى وَصلَ مَشارِفَ مَدينةِ "حَمُّوريَّة" وَ "بيتِ سَوى" مِن جِهةِ القِطَاعِ الأَوسَطِ، وَأصبَح عَلَى مَشارِفِ مَدينةِ "دُومَا" بَعدَما أخذَ مُدن "حُوش الضَّواهِرة" وَمِن ثُمَّ "الرِّيحَان" وَمَا حَولَهَا.

← أطبَقَ الحِصَارُ كَامِلاً عَلَى مَدِينَةِ "حَرستَا" وَتَمَّ عَزلُهَا عَن "دُومَا" وَ "القِطَاعِ الأَوسَطِ"، كَانَت خُطَّةً مَدرُوسَةً تِبعَاً لاقتِتَالِ الفَصَائِلِ لَا أدري مَا نِسبَةُ الصُّدفَةِ بينَ كُلِّ تِلكَ الأُمورِ، أذكُر تَماماً تلكَ اللَّيلَةَ المُرعِبَةَ الَّتِي بدأَ فيهَا النِّظَامُ بِهدمِ مَدِينَةِ "مِسرَابَا"، وَ"مَديرَا" بِشكلٍ كَاملٍ عَلَى رُؤُوسِ أَهلِهَا لِيَفصِلَ بَينَ القِطَاعِ الشَّمالِيّ، وَالقِطَاعِ الأَوسَطِ، كَانَت "مِسرَابا" تَشتَعِلُ لَيلاً، وَالعَوائِلُ تَخرُج مِنهَا تَحتَ القَصفِ تَحمِلُ مَا تَستَطِيعُ مِن أَطفَالِهَا، وَعَوائِلهَا مُتَرجِّلينَ أو عَلَى أيّ شيءٍ مُتَّجِهينَ نَحوَ: "عِربِينَ" وَ "دُومَا"، كَانَت مِن أقسى المَشَاهِدِ الَّتِي رَأَيتُها، فَالوُجُوهُ كانت خَائِفَةٌ، جَائِعَةٌ، هَارِبَةٌ مِنَ المَوتِ الَّذِي شَاهَدُوه، هَؤلاءِ النَّاسُ هَربُوا فَقط لأَنّهُم لا يُريدُونَ البَقَاء تَحتَ حُكمِ الأَسدِ، وَلَو كَلَّفهَم ذَلكَ هَذَا المَشهَدُ المُرعِبُ، حَاوَلَ الأَهالِي مُوَاسَاةَ بَعضِهِم، فَالجَحِيمُ فِي المَنَاطِقِ الَّتِي تَنزَحُ إِليهَا لَا يَقِلُّ عَن مَدِينَتِهِم، كَانَت الغُوطَةُ حِينَهَا تَئِنُّ كُلُّها بِلَا استِثنَاء.

← كُلُّ المَناطِقِ بَدأت تَنزَحُ إِلَى المُدنِ الرَّئِيسةِ، وَهِيَ: "دُومَا" وَ "عِربِين"، وَذَلكَ لِوجُودِ كَمِيَّةٍ مِنَ الشَّبابِ تَستَطِيعُ أَن تُحَافِظَ عَلَى المَدنِيينَ مِن دُخُولِ مِيلِيشيَّاتِ الأَسدِ، وَالقِيَامِ بِالمَجَازِرِ عَن قُربٍ إِلَى أَن يَجِدُوا حَلًّا بِالمُفَاوَضَاتِ أو مَا شَابَهَ ذَلكَ، فَالمَوتُ عَن بُعدٍ أَحبُّ إِليهِم مِن أَن يَصِلَ إِلَيهِم جَلَّادُهُم!

فِي هَذِه الأَثْنَاءِ بَدأت تَظهَرُ تِلكَ الفِئَةُ الَّتِي تَظهَرُ فِي كُلّ عَصرٍ مِنَ العُصُورِ عِندَ أيِّ انتكاسةٍ لأيِّ طَرَفٍ تَحتَ أيّ مُسمًّى يَصطَلِحُ عَلَيهِ أهلُ تِلكَ الفَترةِ، فَالطَّابُورُ الخَامِسُ، وَالمُنَافقين، وَالخَونَةُ، وَالعُملاءُ، وَجَمَاعَةُ المُصالحَاتِ، وَجَمَاعَةُ مَن يَقصِفُنَا اليَوم سَيحمِينَا غداً، باختِلَافِ مُسمَّيَاتِهم فِي كُلِّ عَصرٍ ،كُلُّ تلك المُصطَلحَاتِ كَانَت تَصِفُ ذَاتَ الأَشخَاص، وَلَكن بِفَتَراتٍ مُختَلِفَةٍ.

بَدأت النَّاسُ تَضيقُ ذَرعَاً بِالقَصفِ بَعدَ وُصُولِ الغَارَاتِ الجَويَّةِ لأكثَرَ مِن [٤٠٠٠ غَارَةٍ] خِلالَ [شَهرٍ تَقريبَاً] عَداكَ عَن الصَّواريخ، وَالرَّاجِمَاتِ، وَمَدافِع الهَاونِ، وانقِطَاع كُلِّ مُسبِّبَاتِ الحَياة.

↵ بَدأت سِياسَةُ النِّظَامِ الدَّنِيئَة بِالبَثّ عَن طَرِيقِ قَنوَاتِهِ بِأنّهُ قَد فَتحَ مَعابِرَ آمِنَةٍ لِلمَدنِيِّينَ الَّذينَ لَم يَستَطِع قَتلَهُم رُغمَ كُلّ الَّذِي ذُكِرَ أعلاهُ، وَلِكَي يَلجَؤُوا إليهِ مِنهُ، كَالذِّئبِ يَحنُو عَلَى الغَنَم، طَبعَاً تِلكَ المُقَارَنَةُ الَّتِي ضَاعَت فِيهَا النَّاسُ حِينَهَا، فَالخَيارَاتُ المَطرُوحَةُ آنَذَاك هِيَ :[إمَّا أن تَرمِي أطفَالكَ فِي المَحرَقَةِ] أو أن [تُلقِيهم لِجَلَّادِكَ] لِيتَلَقَّفَهُم مِنَ اليَمِ الَّذي يُغدقُ حِمَمَاً لَعَلَّهُ تَرِقُّ لَهم قُلوبٌ عِندَ مَن لَا قَلبَ لَهُ، لا أدري حِينَهَا كَيفَ اختَلَطت كُلّ تِلك المَشاعِر، أُشاهِدُ أنَاسَاً يَتَحدَّثُونَ عَن تَسليمِ أنفُسِهِم، وَلا أُحَاوِلُ أن أمنَعَهُم حَتَّى وَلو بِالكَلامِ؛ لأنّ الوَاقِعَ أصعبُ مِن أن نَستَوعِبَهُ لتَدَاخُلِ كُلِّ شَيءٍ فِيه، فَلَم يَعُد هُنَالِكَ مَا يُمكِنُ لَهُ أن يُنقِذَ مَا تَبَقَّى مِن أرواحِ مُحَاصَرَةٍ.

← لَم يَسمَع أحدٌ نِداءَنَا ، بُحَّت أصواتُنَا، بَل وَكَادت حَنَاجِرُنَا أن تُقتَلَع مِن الصُّرَاخ، وَلَكِن عَلَى مَا يَبدُو أنّهُم يُريدُونَ أن تَتُمَّ الصَّفقَةُ بِأسرع مِمَّا نَتَوقَّعُهُ حتَّى، فَمَا نَحنُ إلا أرقَامٌ عَلَى مَكتَبِ الحِسَابَاتِ الدُّوليِّة، فَـ[نِصفُ مِليُونِ] إنسانٍ لَا يَستَلزِمُ تَغييرَ السِّيَاسَاتِ وَالتَّحَالُفَاتِ لأجلِهَا، وَهَذَا طَبِيعِيٌّ؛ لأنَّ فِي التَّارِيخ مَا يُشبِهُ ذلكَ، وَلَكن لَا يُوجَدُ فِي التَّارِيخ مَا يُشبِهُ مِثَالِيَاتِ الأُمَمِ المُتَحِدَةُ وَ قَوانِينِ حَقِّ الحَياةِ، وَالحُرِّيَّةِ، وَالتَّعلِيم، لِذَلِكَ إن لَم تَصنَع تِلكَ المُسمَّيَاتُ الفَارِقَ فَمَا الفَائِدَةُ مِنهَا صَراحَةً ؟

لَم تَعُد هُنَالِكَ فَصائِلُ مُسيطِرَة، فَالأوراقُ اختَلَطَت، وَلَا زَالَ أُمرَاءُ الحَربِ حِينَهَا يُصدِرُونَ بَيانَاتٍ فَارِغَةٍ لَا تَكَادُ تُعادِلُ قِيمَةَ حِبرِهَا المَكتُوبِ، مع تأييدٍ مقزِزٍ لأشَابِينِهِمُ الذينَ يُفتُونَ لَهم بِمَا يَتَنَاسَبُ مَع مَا يُرِيدُ الدَّاعِمُ، وَلَكن كَانَ يُخَالِجُنَا الشَّكُ بِأنَّ تِلكَ البَيانَاتِ كَانَت لِشَيءٍ يُرِيدُونَ تَحصِيلَهُ فيمَا بَعدَ انتِهَاءِ الحَملَةِ.

← بَعيداً عَن إخلاصِ وَ صِدقِ الثُّوَارِ وَعَنَاصِرِ الفَصَائِلِ الَّتِي تُقدِّمُ وَتَبذُلُ كُلَّ مَا لَديهَا، بَدأت شَيئَاً فَشَيئَاً ظهُورُ شَرِيحَةٍ مِنَ النَّاسِ مِنَ الَّذينَ كَانُوا قَد التَزَمُوا الحِيَادَ فِي بِدَايَةِ الثَّورَةِ وَ مِنهَم مَن انضَمَّ لَاحِقَاً إلَى صُفُوفِ الثَّورَةِ، بُحكمِ أنّهُم قَد صَارُوا تَحتَ الأمرِ الوَاقِعِ؛ لِيَظهَرُوا عَلَى السَّاحَةِ، وَيَتَصَدَّرُوا المَشهَدَ، وَيَقُودُهم شَخصٌ يُدعَى: بَسَّام ضِفدَع مِن مَدِينَةِ "كَفربَطنَا"، وَالَّذِي كَانَ مُغيَّبَاً كُلَّ تِلكَ السَّنَواتِ فِي الغُوطَةِ، أذكُرُ أنّهُ قَد كَانَ مُرشَّحَاً سَابِقَاً لِعُضوِيَّةِ مَجلِسِ الشَّعبِ فِي نِظَامِ البَعثِ، وَلكنَّ نَجَاسَتَهُ لَم تُؤَهِّلَهُ لأن يَكُونَ كُفؤَاً لِهَذَا المَنصِبِ عَلَى مَا يَبدُو.

خِلالَ وُجودِهِ فِي الغُوطَةِ لَم يَكُن لَهُ أيُّ نَشَاطٍ يُذكَر سِوى بَعضِ الدُّرُوسِ وَالخُطَبِ الَّتِي تَحكِي عَن الحَيضِ أو عَن الطَّهَارَةِ أو عَن تَسمِيَةِ الأطفَالِ فِي ظِلِّ كُلّ ذَلك الظُلم، فكَانَ أشبَه بِقِسِّيسِي القُسْطَنطِينِيَةِ عِندَما فَتحَها المُسلِمُونَ، فَوجَدُوهُم يَتَنَاقَشُونَ بِنَوعِ الطَّعَامِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مَائِدَةِ عِيسَى، كَانَت مَواضِيعُهُ تُشبِهُهَا نَوعاً مَا، وَلكن يَبدُو أنَّ دَورَهُ قَد حانَ لِيَتَصَدَّر المَشهَدَ فِي تلكَ اللَّحظَاتِ الحَرِجَة؛ لِكي يَقُومَ بِمدِّ ذِراعَهِ دَاخِلَ مَا تَبقَّى مِن مُدنِ الغُوطَةِ، فَالقِتَالُ دَاخِلَ المُدنِ أشبَهُ بِالمُستَحِيل، نَعَم، كَانَ هُنَالِكَ خَونَةٌ، عُمَلاءُ للنِّظَامِ، مُحبِطِينَ، مُثَبِّطِينَ، أجنداتٍ.

وَلَكِن لَم تَكُن بِذلكَ الحَجمِ مِن التَّأثِيرِ حِينَهَا، أذكُر أيضاً أنّهُ حَصَل مِثلُ ذَلكَ فِي بِدَايَةِ الحِصَارِ أيَّامَ الدَّعوَةِ إِلَى المُصَالَحَاتِ بَعدَ أن نَجَحت فِكرَةُ مُصَالحَةِ بَرزَة وَهُدنَةِ القَابُون، وَلَكن لَم تَأخُذ ذَاكَ الصَّدَى، لأنَّ الأمرَ مَحسُومٌ حِينَهَا عِندَ أهلِ الغُوطَةِ، بِأنّنَا وَالنِّظَامُ لَا يُمكِنُ لنَا أن نَتَعايَش يوماً.

وَلَكن هَذهِ المَرّةَ كَانَ الأمرُ مُختَلِفاً، فَاختَلَفت مَوازِينُ القِوَى، وَبَدأت فِئَةٌ مِن الشَّبَابِ الَّتِي تُقَاتِلُ ضِدَّ النِّظَامِ تَنقَلِبُ مَعهُ حَيثُ بَلَغَ عَدَدُ الضَّفَادِعِ المُقَاتِلَة [٣٠٠ ضِفدَعاً تَقرِيباً]

← هَذَا المُصطَلَحُ الَّذِي أُطلِقَ عَلَى تِلكَ الشَّرِيحَةِ، وهُوَ عَدَدُ صَغيرٌ إذَا مَا قُورِنَ بِمُقَاتِلِي الغُوطَة، وَلَكنَّهُم كَانُوا كَالطَّعنَةِ الَّتِي جَاءَتنَا مِن الخَاصِرَةِ، اختَلَطتِ الأَورَاقُ، وَبَدَأَ الشَّكُ يَتَسَرَّبُ إِلَى الجَمِيعِ فَهؤُلاءِ بَدؤُوا بِإِدخَالِ الجَيشِ إِلَى مَنَاطِقِهِم فِي اللَّيلِ، فَهُم عَلَى عِلمٍ بِكُلِّ تَفَاصِيلِنَا، وَكُلِّ مَا نَتَحَصَّنُ بِهِ.

← ظَهَرت حِينَهَا مَعرَكَتَينِ عَلَى السَّاحَةِ [مَعرَكَةٌ ضِدَّ النِّظَامِ، وَمَعرَكَةٌ ضِدَّ الضَّفَادِعِ] الَّذِينَ لَم نَكُن نَملِكُ خِبرَةً فِي قِتَالِهِم، وَلَم نَكُن نَملِكُ فَتوَى – أَقصِدُ كَعَنَاصِرَ بَسِيطَةٍ تَنجَذِبُ لِرَابِطَةِ القُربَى – إِضَافَةً إِلَى أَنّ الأَمرَ بدأَ يَنحَسِمُ لِصَالِحِ النِّظَامِ، وَعَمَّتِ الفَوضَى، فَتَحَ النِّظَامُ مَعبَر "حَمَّوريّة – الأَشعَرِي" وَمعبَرَ "مُخيَّم الوَافِدِين – دوما" للنَّاسِ الرَّاغِبَةِ بِتغيير طَرِيقَةِ المَوتِ، وفِعلاً استَجَابَ عَددٌ كَبيرٌ لِذلك، وَلَكِن كَعَادَتِه كَانَ نِظَامَاً أَقلّ مِن أَن يُعقَدَ مَعهُ أَيّ اتّفَاقٍ، وَلَو كَانَ ذَلكَ الاتّفَاقُ مَعَ شَعبٍ أَعزَل قَد رَفَعَ رَايَةَ النَّجَاةِ، بَدَأَت أَعدَادٌ غَفِيرَةٌ تَزحَفُ إِلَى مَعبرِ حَمَّورِيَّة. شَاهدتُهُم يَحمِلُونَ أَطفَالَهم وَبَقَايَاهُم وَيَجُرُّونَهَا كَمشَهدٍ شَبيهٍ بِالمَحشَرِ.

← فَجأةً بَدأ النِّظَامُ باستَهدافِهِم بِراجِمَاتِهِ عَلَى ذاتِ الطَّرِيقِ المُؤدِي إِلَى مَعبَرِهِ، كَانَت الجِثَثُ مَرمِيَّةً عَلَى أَطرَافِ الطُرقَاتِ، طِفلٌ هُنَا، وَامرأَةٌ هُنَاكَ، وَعَائِلَةٌ قَد ضَمَّت بَعضَهَا، وَأكمَلت طَرِيقَهَا إِلَى السَّماءِ بَدلاً مِن مَراكِزِ الإِيوَاءِ

كَانَ المَشهَدُ كَمَا لَو كَانَ إِسرَافِيلُ قَد نَفخَ نفخَةَ البَعثِ، وَنحنُ نَنظُرُ إِليهِم، لَم تَستَطِع سَيَّارَاتُ الإِسعَافِ الوُصُولِ إِليهِم وَلَن يُرسِلَ لهُم النِّظَامُ أَيَّ سَيَّارَةِ إِسعافٍ، هُوَ فَقَط يَتَلَذَّذُ بِمنظَرِهِم هَكذَا، وَيُعَاقِبَهُم عَلَى بَقَائِهِم فِي الطَّرَفِ المُنَاهِضِ لاستِبدَادِهِ، وَلَو كَانَ ذَاكَ الَّذِي فُصِفَ لَا يَملِكُ مِن أَمرِهِ شَيئَاً، فَالأَطفَالُ غالباً لَم تتَّخذ طَرفاً بَعد كَي تُحَاسَبَ بِقَانُونِ الإِبَادَةِ الجَمَاعَيةِ بِتُهمَةِ طَلَبِ آبائها للحُرِّية .

لـ كنتُ أسمَعُها عَلَى قَنَواتِهِ مِراراً بُوجُوبِ تَطهِيرِ الجِيلِ أيضاً، فَهُوَ يَحمِلُ جِينَةَ التَّمَرُّدِ وَالمُطَالَبَةِ بِالحُرِّيَّةِ دَاخِلَ مُورِّثَاتِهِ، وَيَجبُ التَّخلُصُ مِنهَا، فَطفرَةُ العُبُودِيَّةِ هِيَ المَطلُوبَةُ فِي نُظُمِ الاستِعبَاد.

بَدأت بَعضُ المَنَاطِقِ تَتَسَاقَطُ تِبَاعَاً سَقَطت: "بَيتُ سَوى"، وَ"كَفربَطنَا"، وَ"مَديرَا"، وَ"مِسرَابَا"، وَ"عَينُ تَرمَا"، وَ "جِسرين"، وَأخيراً سَقَطت "حَمُّورِيَّة"، وَ"سقبَا"، وَ "حَزَّة".

كَانَت تِلكَ النِّهَايَةُ فِي نَظَرِ الكَثِيرِينَ مِن أهلِ الغُوطَةِ، وأنَا مِنهُم، فَلم أجِد مُبَرّرَاً أو مَنطِقَاً يَقُــولُ: إنّــهُ وَضمنَ إمكَانِيَّاتِنَا تِلك يُمكِنُنَا الصُّمُود، عِلمَاً أنهَم قَد قَالُوا لنَا حِينَهَا بِأنَّ جَمِيعَ الأطرَافِ الَّتِي تَرتَشِــفُ مِــن دِمَاءِنَا بِاتّفَاقِيَّاتِهَا، قَامَت بِالتَّوقِيعِ وَلَكِن الأمرَ هُوَ مَسألَةُ وَقتٍ لَا أكثَرَ، هُنا انقَطَع أمَلِي مِنَ المُقَاوَمَــةِ ، لَــم تَبقَ إلا "دُومَا" وَ"حَرستَا" كُلٌّ عَلَى حِدَةٍ، وَفِي القِطَاعِ الأوسَطِ ["عِربِينُ" وَ أجزَاءٌ مِن "زَملَكا"] وَ بَــدأتِ المَنــاطِقُ تَضيقُ لتَنحَصِرَ فِي ثَلاثِ مُدنٍ رَئِيسةٍ وَهِيَ: "دُومَا"، "عِربِين"، "حَرستَا".

← قَامَت تِلكَ المُدُن بِتَحصِينِ مَا تَبَقَّى مِنهَا؛ لأنَّها قَد تَحاصَرت مِن كُلِّ الجِهَاتِ، وَحَقِيقَةُ الأمرِ لَا أدرِي مَاذَا كُنَّا نَنتَظِرُ حِينَهَا؟، كُنّا نُحَاوِلُ الصَّدَ حتَّى أخرِ رَمَقٍ مِنَّا، يَكفِي أن يَمضِي عَلينَا اليَومُ دُونَ أن نَخضَعَ لِحُكمِ الأسدِ، هُنَا بَدأت تَلُوحُ فِكرَةُ التَّهجِير، وَلَو كَانَت بِمُفرَدَاتٍ كُنَّا نُلطِّفُهَا قَلِيلَاً كَي نَتَقبَّلهَا، فَتَارَةً نَقُولُ: سَنَخرُجُ لِنُرَمِّمَ أنفُسَنَا ونَعُودَ، وَتَارَةً نَقولُ: انحِيَازاً.

← لَم تَكُن لَدينَا أيُّ وَسِيلَةِ نَصرٍ حِينَهَا فِي مَعرَكَةِ عَضِّ الأصَابِعِ تِلك، سِوَى أن نَتَحَمَّلَ الألَمَ كَي نَكسِبَ أكبرَ قَدرٍ مُمكِنٍ مِنَ التَّسهِيلاتِ لِلخُرُوجِ، هُنَا ظَهرت مَا يُدعَى لَجنَةُ المُفَاوَضَاتِ، وَالَّتِي حَسَمت كُلَّ العَنتَرِيَّاتِ الَّتِي كَانَت تُطلِقُهَا حِينَهَا مَا تَبَقَّى مِن فُتَاتِ الفَصَائِلِ، فَهُم لَم يَعُودُوا صَاحِبِي قَرَارٍ مِن أوَّلِ يَومٍ انسَلَخُوا فِيهِ عَن مَطَالِبِ الثَّورَةِ، وَفَضَّلُوا مَشَارِيعَهُم وَمَشَارِيعَ حُلفَائِهِم عَلَى أهدَافِ الشَّعبِ.

كَانَت "حَرستَا" أوَّلُ مَن بَدأَ بِالتَّفَاوضِ كَونَهَا المَساحَةُ الأَصغَرُ المُتَبقيَّةِ، وَعَدَدُها لَا يَتَجَاوَزُ[٥٠٠٠ مُقَاتِلٍ] مَعَ عَوائِلِهِم يَذكُرُ لِي مَن قَد فَاوَضَ هُنَالِكَ أَنّهُ قَبلَ التَّوقِيعِ بِيَومَينِ كَانَ الرُّوسُ قَد أمهَلُوهُم ٢٤ ساعَةً للتَّوقِيعِ، وَعندَمَا رَفضُوا حَرَقت رُوسيَا الشَّجرَ، وَالحَجرَ فِي المَدينَةِ حِينَهَا، وَبَعدَها بِيومٍ تَمَّ التَّوقِيعُ علَى اتّفَاقِيَّةِ التَّهجِيرِ مَعَ الرُّوس.

لأَنَّهُ عَلَى مَا يَبدُو أَنَّ هُنَالِكَ انقِسَامٌ دَاخِلِيٌّ بَينَ الرُّوسِ وَ النِّظَامِ، فَالمُفَاوِضَةُ مِن قِبَلِ النِّظَامِ "كِنَانَة حُوَيجَة"، كَانَت تَقُولُ لَهُم حَسبَ مَا رَوَى لِي بِأَنها تُرِيدُ أَن نَجعَلَ الاتّفَاقِيَّةَ بَينَ طَرفَينِ[سوري – سوري]، وَلَيسَ هُنَالِكَ دَاعٍ لِإدخَالِ الرُّوسِ بَينَنَا.

↵ تَمَّ التَّوقِيعُ عَلَى اتِّفَاقِيَّةٍ مَعَ الرُّوسِ تَقتَضِي:

إِخلَاءِ مَن يُرِيدُ الخُرُوجَ إِلَى الشَّمَالِ السُّورِي، وَوَضَعت بَعضَ القَوانِينِ البَسِيطَةِ كَـ [السِّلاح الفَردِيّ]، وَ [عَدَد المَخَازِنِ]، وَ[الذَّخِيرَةِ]، وَ [بَعضِ التَّعلِيمَاتِ]، وَمَن أَرَادَ [تَسوِيَةَ وَضعِهِ] مَعَ النِّظَامِ بِإِمكَانِهِ البَقَاءُ، وَمَن أَرَادَ [الخُرُوجَ] فَهُنَالِكَ بَاصَاتٍ سَتَدخُلُ لِإِخرَاجِ مَن لَا يُرِيدُ التَّسوِيَةَ، وَسَتَكُونُ هُنَالِكَ [حِمَايَةٌ رُوسِيَّةٌ لِتِلكَ القَوافِلِ]، وَهَكَذَا تَمَّت الاتِّفَاقِيَّة.

وَهَكَذَا خَرجنَا.....

هَكَذَا خَرَجنَا.

الفَصلُ السَّادِسُ:

** هَكَذَا خَرجنَا **

← خَرَجَت "حَرَستَا" إلى الشّمَالِ خِلالَ أيَّامٍ قَلِيلَةٍ استَمَرَّ ذَلكَ مَا يُقَارِبُ الأُسبُوعَ، وَلَا زَالتِ الحَملَةُ الهَمَجِيَّة مُستَمِرَّةً فِي بَاقِي المَنَاطِقِ، بَدأَتِ الأَصوَاتُ تَعلُو فِي "عِربِينَ" بِأَنَّ الأُمُورَ إِذَا مَا استَمَرَّت هَكَذا فَسوفَ نَهلِكُ جَمِيعُنَا، لأَنَّ[٩٠ يَومَاً] مَضَوا دُونَ طعَامٍ أو دَوَاءٍ، وَدُونَمَا انقِطَاعٍ لآلَةِ القَصفِ، أضِف لذَلكَ أعدَادُ الجَرحَى المُتَزَايِدِ يَومِيًّا، وَالَّذينَ وَصلُوا إلى الآلافِ، وَذلكَ لأَنَّ المَنَاطقَ المُجَاورةَ نَزحَت إِلَى مَدِينَةِ "عِربِينَ" مَعَ جَرحَاهَا، فَزَادَ العَددُ لأَضعَافِ استِطَاعَتِنَا، إضَافَةً لِعَجزِنَا السَّابِق.

← بَدأَت تَختَلِطُ الأَقبِيَةُ فِي مَدِينَةِ "عِربِينَ" وَ"زَملكَا" بِكُلّ جَرحَى القِطَاعِ الأَوسَطِ، وَزَادَ العِبءَ إِلَى أَضعَافِ مَا قَد كَانَ عَلَيهِ ، بِالرُّغمِ مِن أنّ الذي كَنّا عَلَيهِ أصلاً لم يُمكِنُ استِيعَابَهُ؛ لأَنَّ غَالِبَ مَن يَأتِي مِن بَاقِي مُدنِ الغُوطَةِ لَا يَحمِلُ شَيئًا سِوَى أطفَالِهِ، حَيثُ كَانَ لِهَؤُلاءِ الهَارِبِينَ بِأَولَادِهِم أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي تَفجِيرِ مَعنَوِيَّاتِ الأَهَالِي فِي الأَقبِيَةِ، وَالمَنَاطِقِ الَّتِي يَهرُبُونَ إِلَيهَا.

← كَانَ لِسُقُوطِ "سَقبَا" وَ"حَمُّورِيَّة" وَمِن ثُمَّ "عَين تَرمَا" وَ"حَزَّة" وَقعٌ خَاصٌّ؛ لأَنَّ الجَيشَ الَّذِي دَخَلَ كَانَ بِمُسَاعَدَةِ الضَّفَادِعِ قَد فَاجَؤُوا أَهَالِيَ المَنطِقَةِ بِذَلك، هُنَالِكَ الشَّيطَانُ بَدأَ يَأخُذُ دُروسَهُ مِن ذَاكَ النِّظَامِ الخَبِيثِ، دَخَلَ الجَيشُ، لَم يَقتَرِب مِن أَحدٍ؛ بَل بَدأَ يُظهِرُ وَجهَهُ البَشُوشَ فِي حِينِ أَنَّ "عِربِينَ" وَ"زَملكَا" كَانَتَا مَا تَزَالا تَرزَحَانِ تَحتَ القَصفِ. عَداكَ عَن "دُومَا" الَّتِي انقَطَعَت أَخبَارُهَا، وَمَازِلنَا نَرى قَصفَهَا مِن بَعِيدٍ.

↵ كُلّ ذَلكَ كَانَ مُمَنهَجَاً؛ لِكَي يَتِمَّ تَنَاقُل الأَخبَار، وَيَستَطِيعَ النِّظَامُ مِن أن يُسَيطِرَ بِأَقلِّ الخَسائِر العَسكَرِيَّةِ المُمكِنَةِ، حَيثُ لَم يَستَطِع الدُّخُولَ إِلَى تِلكَ المَنَاطِق بَعدَ قَصفِهَا، وَهَدمِهَا، وَخُلُوّهَا مِنَ الضَّفَادِع حِينَهَا، لَم يُدرِك الكثيرُ مِنَّا سِرَّ هَذِهِ المُفَارَقَةِ الَّتِي مَارَسَها النِّظَامُ، ففي بِدايَةَ الثَّورَةِ من كان مَوضِعَ شَكٍّ للنِّظَامِ، وَلَو لِمُجَرَّدِ الشَّكِّ أو تَشَابُهٍ للأَسمَاءِ فِي خُرُوجٍ لِمُظَاهَرَةٍ أو تَشييعٍ لشهيدٍ ، كَانَ يُمضِي مَا تَبقَّى مِن حَيَاتِهِ فِي غَيَاهِبِ السُّجُونِ، فَكيفَ بِمَن نَاهَضَهُ سَبعَ سِنِين، وَحَملَ السِّلَاحَ فِي وَجهِهِ.

كَانَ الذِّئبُ يظهرُ أنيَابَهُ ضَاحِكاً لنَا ، لَم يَكُن لَدينَا شَكٌّ أبداً بِأَنَّهُ أَرَادَ الابتِسَامَ يَوماً، فَمَعارِكُ الصَّحرَاءِ القَادِمَةِ في البَادِيَة تَحتَاجُ لِقَرايِينَ يَجِبُ أن يُقَدّمهَا النِّظَامُ، وَهؤُلاءِ الضَّفادِع مَعَ مَن سَيبقَى مَعهُم، سَيَكُونُونَ أفضَلَ مَخزُونٍ بَشَرِيٍّ يُمكِنُ أن يَستَهلِكَها.

← فِعلاً كَانَت تِلكَ الخُطَّةُ المَقرُوءَةُ لِلجَمِيع، فَنَحنُ أصبَحنَا عَلَى عِلمٍ بِكَيفِيَّةِ تَفكِيرِ البَعثِ، فهُوَ يُوزِّعُ السَّجَائِرَ عَلَى تلكَ المَنَاطِقِ، وَالمَنَاطِقُ المُحَاذِيَةُ يُحرِقُهَا بِالنَّارِ، وَيَقُومُ بِإِبَادَتِهَا!

بَدأَ بَعدَها مَطلَبُ التَّهجِيرِ يَأخُذُ حَيِّزاً مِن تَفكِيرِ جَمِيعِ مَن لَا يُرِيدُ البَقَاءَ تَحتَ حُكمِ مَن قَتَلَهُ، وَحَاصَرَهُ، وَشَرَّدَهُ لِسَنَواتٍ، وَمَن لَا يُرِيدُ أَنّ يُكمِلَ حَيَاتَهُ فِي ظِلِّ بَعثٍ أَسوَدٍ يَتَصَدّقُ عَلَيهِ بِحقُوقِهِ، وَيَحسِبُ أَنَّ تَأمِينَ الطَّعَامِ لِلشَّعبِ إِنجَازٌ، وليسَ واجِبَاً، كَانَ هُنالكَ بَعضُ الأَصوَاتِ تُنَادِي بِالصُّمُودِ، وَلَكِن لَم تَلقَ صَدَاً؛ لِأَنَّ وَاقِعَ الحَالِ أَغنَى مِن عَنتَرِيَّاتِ المَقَالِ.

فِي حِينِ أَنَّ تِلكَ القِلَّةَ الَّتِي يَتَحَدَّثُ عَنهَا القُرآنُ كَانَت مُؤمِنَةً بِالنَّصرِ بَعدَ أَخذِ الأَسبَابِ، فَاللَّهُ لَا يُغَيّرُ قَوَانِينَهُ الكَونِيَّةَ لِفِئَةٍ بِمُجَرِدِ الدُّعاءِ، وَعَدمِ الأَخذِ بِكُلّ مُسَبّبَاتِهِ، كَانَت مَقَايِيسُ الاجتِهادِ مُختلِفَةً لَدى مَن هُم فِي الدَّاخِلِ، وَكُلٌّ لَهُ قِيَاسَاتُهُ وَمُقَارَنَاتُه.

كُنتُ مِن بَينِهِم: كُنتُ مِن بَينِ هَؤُلاءِ الَّذِينَ سَلَّمُوا الأَمرَ حِينَهَا لِلتَّهجِيرِ؛ بَل وَبِتُّ أُطَالِبُ بِهِ ، لِنخَفِّفَ مَا استَطَعنَا بَعضَاً مِنَ العَذابِ، لِأُولئك الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَن يَهرِبُوا بِأَطفَالِهِم وَأَنفُسِهِم مِن هَذَا النِّظَامِ؛ لِأَنّهُ ومن خِلالَ سَماعِي لِلسَردِ التَّارِيخِي بَعِيداً عَن المُعجِزَاتِ وَالحَالاتِ الاستِثنَائِيَّةِ، كُنّا نَسِيرُ بِاتِجَاهِ التَّهجِيرِ مِنذ شُهُورٍ إِن لَم يَكُن مُنذُ سَنَوات.

↵ كانَت النَّاسُ قَد تَجَهَّزَت لِتلكَ الفِكرة وَبَدأَت بِالتَّفكِيرِ قَبلَ التَّوقِيعِ بِأُسبُوعٍ بِالأمرِ بِشَكلٍ جَدِّي بَعدَ تَوقِيعِ حَرستَا وَ البَدءِ بِخُرُوجِهَا إِلَى الشَّمَال، بَدأت تَتَشكلُ وُفُود مَدَنِيَّةٌ، وَأُخرَى عَسكَرِيَّة؛ لِسَمَاعِ مَطَالِبِ الرُّوسِ لأنّهُ وَعَلَى مَا يَبدُو أنَّهُ كَانَ هُنَالِكَ أكثَرُ مِن طَرَفٍ فِي المُقَابِلِ، فَالنِّظَامُ يُفَاوِضُ عَن طَرِيقِ شَخصِيَّةٍ ظَهرت عَلَى السّاحةِ، كَانَت قَد تَفَاوَض مَعهَا وَفدُ حَرستَا تُدعَى: "كِنَانَة حُوَيجَة"، كَانَت مُذِيعَةَ أخبَارٍ فِي مَا مَضَى، كَانَت تَشتَرِطُ أيضَاً أن تَكُونَ المُفَاوَضَات بَينَنَا وَبَينَهَا حَصراً بَعِيدَا عَنِ الرُّوس، فِي حِين كَانَ الوَفدُ العَسكَرِيُّ المُفَاوِضُ لدينا يُقَابِلُ الوَفدَ الرُّوسِيَّ بَعيداً عَن النِّظَام.

لَكنَّ العَامِلَ المُشتَرَك فِي كِلَا مُفَاوَضَاتي "عِربِينَ" وَ "حَرستَا" ، عِندَ رَفضِ المُفَاوَضَاتِ فِي المَرَّةِ الأُولَى، كُنَّا نَظُنُّ أنَّنَا فِي المُفَاوَضَاتِ سَنَكسِبُ الأرضَ مُقَابِلَ بَعضِ التَّنَازُلاتِ، لَكِن دَائِمَا مَا يَتِمُّ طَرحُ حَلَّينِ لَا ثَالِثَ لَهُمَا بِأنّ أمَامَنَا [المَوتُ] أو [التَّهجِيرُ]، فَنَقُومُ بِالرَّفضِ، فَيُشعِلُ لَيلَنَا نَهاراً، وَيَحرقُ المَدِينَةَ بِمَن فِيهَا.

← بَدأت حِينَهَا تَشتَعِلُ الأقبِيَةُ بِالحَرائِقِ بِصَوارِيخِ النَّابَالَم الَّتِي لا أدري مَن حَرَّمَهَا عَلَى مَن؟ وَلا يُوجدُ مَن يُطفِئُهَا حَيثُ كَانَ أخرهُا القَبو الَّذِي حُرِقَ فِيه [٤٦شخصَاً] غَالِبُهم مِنَ النِّسَاءِ وَالأطفَالِ دَاخِلَ قَبوٍ فِي مَدِينَةِ "عِربِينَ"، لِيَكُونَ بِدايةَ النِّهَايَةِ.

خِلالَ الحَملَةِ كُنَّا نَتَمنَّى أن نَستَنشِقَ الهَوَاءَ، فَالدُخَانُ، وَرَائِحةُ الدَّمِ، قَد مَلأَ المَكَان، كَانَت تَقتُلنِي رَائِحَةُ البَارُودِ، وَبَقَايَا دُخَانِ البَرَامِيلِ المُتَفَجِرَةِ، لَم تَبقَ مِنطَقَةٌ فِي الغُوطَةِ الشَّرقِيَّةِ لَم تُقصَف، كَانَت تَنزِفُ مِن كُلِّ أطرَافِهَا.

كَانَت كَمَا الوَردَةِ الَّتِي أُخرِجَت مِن قَعرِ النَّارِ تَشعُرُ بِرَائِحَتِهَا الجَمِيلَة، وَلا تَشُمُّ غَيرَ الرَّمَاد، وَيُخَيَّلُ لَكَ لَونُهَا الأَحمَرِ الجَمِيلِ، وَلا تَرى غَيرَ السَّوَادِ.

أسيرُ فَوقَ الرُّكَامِ لأَرَى أَشبَاهَ بَشرٍ يَنسَلُّونَ مِن أَقبِيَتِهِم لَتَلَقُّفِ بَعضِ مَا يَسدُّ رَمَقَ أَطفَالِهِم، أَنزِلُ إِلَى الأَقبِيَةِ أَرى وُجُوهَ الأَطفَالِ المُتَسِخَةِ الَّتِي تُحاوِلُ أُمَّهَاتُهُم أن تَمحُو أَثَرَهُ بِمَا لَدَيهَا مِن دُمُوعٍ، بَعدَ تِلكَ اللَّيلَةِ الَّتِي لَم نَرَ فِيهَا اللَّيلَ، تَمَّ التَّوقِيعُ عَلَى اتِّفَاقِيَّةِ التَّهجِيرِ للقِطَاعِ الأَوسَطِ، أَذكُر أَنَّهُ كَانَ بَعدَ أُسبُوعٍ مِن تَهجِيرِ مَدِينَةِ حَرستَا.

[٢٣/ ٣ /٢٠١٨] كَانَ يَومُ التَّوقِيعِ بِالنِّسبَةِ للقِطَاعِ الأَوسَطِ، وَلِكَي أُزِيلَ بَعضَاً مِن الشُّكُوكِ الَّتِي تُرَاوِدكَ عَن النِّظَامِ وَالتِزَامِهِ بِالاتِّفَاقِيَّاتِ، بِأَنَّ التَّوقِيعَ تَمَّ فِي نَهَارِ هَذَا اليَومِ عَلَى أَن يَكُونَ سَارِي المَفعُولِ عِندَ السَّاعَةِ [١٢ لَيلاً]، تَخَيَّل أَنَّ القَصفَ لَم يَتَوَقَّف مِن بِدَايَةِ التَّوقِيعِ حَتَّى السَّاعَةِ [١٢ لَيلاً] .

أيَّ أنّهُ بالرُّغمِ مِن أنّ الاتّفَاقيّة الَّتي تَمَّت، وَعَدَمِ وُجُودِ طَائِلٍ منَ القَصفِ إلَّا أنَّهُ استَمَرَّ بِالقَصفِ حَتَّى يَقتُلَ، وَيَنهَشَ، وَيَحرقَ مَا استَطَاعَ .

وَلِلتَّوثِيقِ أنّ مَحرَقَةَ عِربِين [بِقنابِل النَّابَالم] حَصَلت فِي السَّاعَة العَاشِرَة وَالنّصفِ لَيلَاً تَقريبَاً أي بَعدَ التَّوقِيعِ وَقَبلَ أنّ يَدخُلَ الاتِّفَاقُ حَيِّزَ التَنفِيذِ بِسَاعَةٍ وَنِصف، تِلكَ العَقلِيةُ الَّتي لَن تفهمَ إجرَامَها مَهمَا حَاولَت أن تَقرأَ عَنِ الطُّغَاةِ، فَهُوَ يَقتُل مَا استَطَاع أن يَقتُل فِيه، وَالَّتِي أطلَقَت علَيهَا بِمُتَلازِمَةِ القَتلِ وَشهوَةِ الدِّمَاءِ.

فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَة عَشرَةَ لَيلاً، فَجأةً صَمَتَ كُلُّ شَيءٍ لَم يَعُد هُنَالِكَ أيّ اشتِبَاكٍ أو قَصفٍ فِي المِنطَقَة، كَانَ شَيئَاً غَرِيبَاً لَم نَعتَد علَيه، نَخرُجُ لِنَمشِي، وَمَازَالَت أعيُنُنَا مُعَلَّقَةً في السَّمَاءِ تَنظُرُ هَل حَقِيقَةً مَا نَرَاهُ أم أنَّهُ حُلمٌ جَمِيلٌ نَرَاهُ وَلا نُرِيدُ الاستِيقَاظَ مِنه، هَل يُمكِنُ أنّ لا نَنقَصِف؟ هَل يُمكِنُ أنَّ يَومَ الحِسَابِ قَد أتَى، وانتَهَى الانتِظَارُ؟

← اتَّفَقُوا عَلَى تَهجِيرِ الشَّعبِ وَبَقاءِ الجَلَّاد، اتَّفَقُوا عَلَى نَفي الضَّحِيَّةِ وَتَركِ الجَانيّ لِيَفرَحُ بِجُرمِهِ الَّذِي ارتَكَبَهُ وليعتَبِرهِ انتِصَاراً لَهُ، أينَ العَدلُ فِي مِثلِ هَذِهِ الاتّفَاقِيَّات؟

مَن سَيُعَاقِبُ هَؤُلاءِ عَلَى سَفكِ كُلّ تِلكَ الدِّمَاءِ والأَطفَالِ وَالأَشلاءِ أَقصِدُ فِي هَذِهِ الدُّنيَا؟ مَن سَيُطَالِبُ بِالأَسرَى وَالمُعتَقَلِين الَّذِينَ سَلَبهُم النِّظَامُ حُرِّيَّتَهُم مِنذُ سَبعِ سَنَواتٍ وَذَلكَ لأَنّهُم طَالَبُوا بِأَن يَعِيشُوا أَحرَاراً .

هَل سَيَصمُتُ العَالَمُ الأَنَ حَقَّاً؟، وَمِن ثُمَّ يَبدَأ بِإِنتَاجِ وَثَائِقِيَّاتٍ فِيمَا بَعد تَحكِي عَن مَظلُومِيَّة شَعبٍ قُتِلَ وَقُصِفَ وَشُرِّدَ وَمَازَالَ جَلَّادُه يَنعَمُ لَيسَ بِالحَيَاةِ فَحَسب؛ بَل بِكُرسِيِّ الحُكمِ.

خَرجنَا مِنَ الأَقبِيَةِ لِتُلامِسَ مَآسِينَا وَمَلامِحَ وُجُوهِنَا المُتعَبَة خُيُوطَ الشَّمسِ الَّتِي افتَقَدنَاهَا شُهُوراً، خَرجنَا لِنَبدَأ مِن جَدِيدٍ مَأسَاةً لَم نَتَجَهَّز لَهَا نَفسِيَّاً حَتَّى، عَداكَ عَنِ التَّجهِيزِ المَادِيِّ .

تَركُ الأَرضِ:

لَم يَكُن الهَاجِسَ الوَحِيدَ فِي مُخَيِّلَةِ أَهلِ الغُوطَةِ، هُوَ تَركُ الأَرضِ و الرحيل فقط؛ بَل كانت الأَرضُ القَادِمَةُ تَشغَلُ حَيِّزاً مِنَ التَّفكِيرِ لَا يَقِلُّ شَأنَاً عَن تَركِ الأَرضِ.

ـ إِلَى أَينَ سَنَذهَبُ؟ وَكَيفَ سَنَتَمَكَّنُ مِنَ العَيشِ فِي مَدِينَةٍ أَهمَلَهَا النِّظَامُ حَتَّى كِدنَا نَنسَاهَا، لا نَملِكُ أَدنَى فِكرَةً عَنهَا ، كان لِسِيَاسَةُ النِّظَامِ بِتَهمِيشِ الكَثِيرِ مِنَ المُحَافَظَاتِ آثَاراً سَلبِيَّةً عَلَى انطِبَاعِ النَّاسِ فِيمَا بَينَهُم، فَهل مُستَقبَلُ تِلكَ المَنطِقَةِ سَيكُونُ كَمَا هُوَ الحَالُ فِي الغُوطَةِ؟ وَهَل نَهرُبُ مِنَ المَوتِ إِلَى المَوت؟

نَرضَى بِقَضَاءِ اللَّهِ، وَلَكِن لَا نَرمِي بِأَنفُسِنَا إِلَى المَوتِ، فلَم يَكُن القَرارُ سَهلاً لِمَن لم يَستَطِيعُوا التَّمييزَ بَينَ السَّيءِ وَالأَسوأ؛ وَذلَكَ لِدِقَّةِ الخَيطِ بَينَهُمَا، إِذْ لَم تَكُن تِلكَ الهِجرَةُ مُشَجّعَةً عَداكَ عَن كَونِهَا تَهجِيراً فِي الأَصلِ، فَهَل سنَبدأُ حَرباً جَديدةً بَعدَ كُلِّ ذَلكَ الحِصَارِ، وَالجَحِيمِ الَّذِي تَلاهُ .

كَانَ مُعظَمُ النَّاسِ قَد وَصلُوا إِلَى مَراحِلهم الأَخِيرَةِ فِي التَّحمُّل، زِد علَى ذَلكَ الإِشَاعَاتُ الَّتي كَانَ يَبثُّهَا النِّظَامُ بِأَنَّ "إِدلبَ" هِيَ المَحرَقَةُ الثَّانِيَةُ بِكُلّ وَقَاحَةٍ، وَعلَى مَسمَعِ الجَمِيعِ، وَبِالفَمِ المَلِيءِ حِقداً وَكَرَاهِيَةً.

← بدأت حِينَهَا حَالَةٌ مِن التَّخبُّطِ وَالضَّيَعَانِ وَالحَيرَةِ لَم أَستَطِع أَن أُدرِكَ الكَثِيرَ مِنهَا حِينَذَاك، كَيفَ لأَشخَاصٍ لا يَرضُونَ بِحُكمِ الأَسدِ أَن يُفَكِّرُوا بِالبَقَاءِ تَحتَ حُكمِهِ، وَلا يَختَارُوا التَّهجِيرَ أَو يَضَعُوهُ ضِمنَ خَيَارَاتِهِم أَو حَتَّى ضِمنَ حَيِّزِ التَّفكِيرِ، كَانَت تِلكَ المُفَارَقَةُ الصَّعبَةُ، فَقد رَأَيتُ أَشخَاصاً مِن خِيرَةِ مَن قَدَّمَ وَضَحَّى مَعنَا خِلالَ تِلكَ السَّنَوَاتِ اختَارَ العَودَةَ إِلَى الحُضنِ الَّذِي يَستَعِرُّ نَاراً وحِقداً، وَإِن لَم يَكُن الأَن، فَبعدَ فَترَةٍ سَيشتَعِل لِيُحرِقَ مَن جَاوَرَهُ وَ احتَمَى بِلَهِيبِه .

فَنَارُ الحِقدِ فِي "الحُولَةِ بِحِمصَ" الَّذي لَم نَعلَم مِن أَيَّ جَحِيمٍ استَقَوه، استَشَاطَ عَلَى الأَطفَالِ ذَبحاً حَيثُ لَم نَكُن حِينَهَا نَحمِلُ السِّلاحَ، فَمَا بَالكَ بَعدَ سَبعِ سِنِينَ قِتَال!

← دَامَ التَّهجِيرُ أُسبُوعَاً تَقرِيبَاً تَمَّ تَهجِيرُ حَوالي [٤١ ألفَ مَدَنِيّ] تَقرِيبَاً مِن مَعبَرِ مَدِينَةِ "عربين" بَعدَ كُلّ تِلكَ الانتِكَاسَات خَرجَ ذَلكَ العَدَدُ إِلَى المَجهُول، كُلّ تلكَ الفَترَةِ وَأَنَا أُحَاوِلُ أَن أَتَواصَلَ مَع مَن كَانَ لَهُ السَّبقُ فِي الثَّورَةِ وَالإِخلَاصِ في العَمَلِ ضِمنَ صُفُوفِهَا، وَالَّذي كَان مِنَ المُفتَرَضِ أَنّهُ يَزِنُ الأُمُورَ بِعقلِهِ، لأَفهَمَ مَا سِرُّ بَقَائِه تَحتَ ظُلمِ النِّظَام، كَانَ النِّقَاشُ يَطُولُ لسَاعَاتٍ، وَفِي نِهَايَةِ النِّقَاشِ أُكَرِّرُ عَليهِم ذَاتَ السُّؤَال.

هَل أَنتَ مُقتَنِعٌ بِمَا تَقُولُ أَم أَنّكَ تُبَرِّرُ لِنَفسِكَ فَقط تَرجِيحُك لِخَيارٍ اجتَهدتَ بِهِ ضِمنَ ظُروفٍ غَيرِ مَنطِقِيَّةٍ؟ فَالاجتِهَادُ يَلزَمُ القَنَاعَة، كَانَتِ الشِّفَاهُ السُّفلَى الَّتِي تُقلَبُ كَافِيةً لإِيصَالِ الفِكرَةِ لِي، كَانَتِ المُبَرِرَاتُ أَشبَهَ بِأَوهَامٍ يَرسِمُونَهَا بِخَيالِهِم كَمَا كُنَّا نَرسِمُ دَولَتَنَا بَعدَ سُقُوطِ النِّظَام، تَفتَقِرُ للإِعدَادِ، تَفتَقِر للرُّؤيَا، تَفتَقِرُ للتَّفكِير لِمَا بَعدَ اليَومِ الَّذِي نَعِيشُهُ، كُلُّ مَا هُنَالكَ أَنّهَا أَشبَهُ بِتَوقُّعَاتٍ أو تَكَهُّنَاتٍ لَا يُمكِنُ لَهَا أَن تَتَحقَّقَ بِالمُعطَيَاتِ المَوجُودَةِ.

بَدأتِ الأوراقُ تَختَلِطُ أكثرَ فَأكثَرَ بِظُهُورِ فِئةٍ جَديدَةٍ تَتبعُ بِالتَّصنِيفِ إِلَى فِئةِ الضَّفَادِع، وَلَكِن بِطَفرَةٍ مُختَلِفَةٍ، كانَت تُطلِقُ عَلَى نَفسِهَا مُسمَّىً لَا تَملِكُ مِنهُ حَتَّى حُروفَهُ، كَانَت تَدعِي نَفسَهَا بِـ [الضمانات] فَالكُلُّ يَعلَمُ حَجمَ كَلمَتِهِم عندَ النِّظَامِ، فَهيَ لَا تَعدُو كَونَهَا ضَبانًا فِي حِذَاءِ أصغَرِ عُنصرِ مُخَابَرَاتٍ، وَلَكنَّهُم قَد أَخَذُوا مَقَاسًا يُنَاسِبُ النِّظَامَ حِينَهَا مِمَّا جَعَلَهُ يَنتَعِلِهُم.

ظَهَر لَدينَا نَوعَينِ منَ الضَّمَانَاتِ مِنها:

- ضَمَانَاتٌ خَارِجِيّة: أي خَارِجَ حُدودِ الغُوطَةِ، وَهِيَ فِئةٌ مِن شُيوخِ السُّلطَانِ مَع مَزِيجٍ مِن بَعثِيّينَ كَانُوا ضِمنَ صُفُوفِ النِّظَامِ وَبعضِ التُّجَارِ.

- ضَـمَانَاتٌ دَاخِلِيَّةِ: الَّذين هُم عِبارَةٌ عَن شُيوخٍ مُذَبذَبِينَ لَا إِلَى هَؤُلاءِ، وَلَا إِلَى هَؤُلاءِ، هُم مَعَ مَن تَرجَحُ كَفَّتُهُ بِالإِضَافَةِ لِبَعضِ التُّجَارِ الَّذينَ يَخَافُونَ عَلَى مَا حَصَّلُوهُ فِي الغُوطَةِ، وَبَعضِ البَعثِيّين القُدَامَى الَّذينَ لازَالُوا يَطمَعُونَ فِي عَلاقَاتِهِم مَعَ رِفَاقِهِم فِي الحِزبِ أَنْ يَصفَحُوا عَنهُم لِجُلُوسِهِم مَعَ مَن يُنَاهِضُهُم، وَبَعضُ الأَطبَاءِ الَّذِينَ يَتبَعُونَ سِيَاسَةَ أَنا مَعَ المُسَيطِرِ.

قَامَت تِلكَ الضَّمَانَاتُ بِإقنَاع الشَّبَابِ بِقَانُونِ التَّسوِيَاتِ الَّذِي طَرَحهُ النِّظَامُ لِمن يَعُودُ إِلَى صُفُوفِهِ، وَبِدَعَوَاتِ المُصَالَحةِ، وَمَرَاسِيمِ العَفوِ الَّتِي سَيُطلِقُهَا سَفَّاحُ سُوريَّا فِيمَا بَعد، وَأَنَّ المَجهُولَ الَّذِي سَيتَّبِعُونَهُ بِالخُرُوج إِلَى الشَّمَالِ سَيَقُودُهُم إِلَى ذَاتِ النَّتِيجَةِ، ويَستَدِلُّوا بِتِلكَ الاقتِتَالاتِ الَّتِي تَجتَاحُ الشَّمالَ السُّوريَّ لِيُقَارِنُوهَا بِالَّذِي حَصَل فِي الغُوطَةِ، ومَآلاتِهَا.

← كَانَ مَجمُوعُ مَن بَقِيَ فِي الغُوطَةِ فِي كُلٍّ مِن "دوما" و"عربين" والمناطق الَّتي لجأت إليها حوالي

[٢٥٠ ألف مدني] اجتازَ كُلَّ ذَاكَ الجَحيمِ؛ لأَنَّ قِسمَاً كَبيراً فِيمَا بَعدَ خَرجَ مِن المَعابِر إلى أَمَاكِن الإِيوَاءِ عَلَى أَطرَافِ الغُوطَةِ، وَالَّذِي بَلَغَ[١٥٠ ألفٍ تَقريبَاً] ((حَسبَ تَقارير النّظام وَقَنَاةُ RT الرُّوسِيَّة)) وَهِيَ مَراكِزُ أَنشَأَتَهَا رُوسيَا لِمَن أَرَادَ أَن يَخرُجَ مِن الغُوطَةِ في الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ قَبلَ التَّوقِيع، لِيُقَرَرَ بَعدَ كُلِّ ذَلكَ الخُروجَ إِلَى الشَّمَالِ حَوالِي[٧٠ ألفٍ تَقريبَاً] مِنَ القِطَاعَاتِ الثَّلاث ، أعلَمُ أَنَّ الأَرقَامَ تَقرِيبِيَّةٌ، فَعندَ المَجَالِس المَحلِيَّةِ أَرقَامَاً دَقِيقَةً،

وَلَكِن أحبَبتُ أن أُلقِيَ الضَّوءَ عَلَى حَجمِ مَن خَرجَ بِالرُّغمِ مِن كُلِّ مَا حَصَل ، وكُلِّ تِلكَ الضُّغوطَاتِ الَّتِي مُورِسَت عَلَيهِم، إلَّا أنّهُم قَرَّرُوا أنّ يَخرُجُوا وَيَترِكُوا أجزَاءً مِنهُم دَاخِلَ الغُوطَةِ، مِنهَا مَا كَانَ فَوقَ التُّرابِ، وَمِنهَا ما تَدَثَّرُوه غِطَاءً لَهُم، فَسبعُ سَنَواتِ من الحِصَار، وَالقِتَالِ، إضَافَةً لِمَصير "إدلب" المَجهُولِ، لَم يَكُن رَادِعَاً لَهُم، فَثَمَنُ حُرِّيَّتهم أغَلى مِن كُلِّ مَا سَبَق .

لَم تُثنِ رُبعَ من أهلِ الغُوطَةِ عَنِ الخُرُوج بِأطفَالِهم، وَ مَا تَبَقَّى مِنهُم للبَقَاءِ تَحتَ لِسَطوَةِ النِّظَامِ بالرُّغم مِن كُلِّ شَيءٍ، لا يَعنِي أنَّ البَاقِي قَد أيَّدُوا دُخُولَهم تَحتَ حُكمِ الطَّاغِيَةِ مِن جَديدٍ، وَلَكِن تِلكَ المُدَّةُ القَصِيرَةُ، وَكُلُّ ذَلكَ الضَّغطِ قَد شَوَّشَ بُوصلَةَ البَعضِ، إضَافَةً إلَى أنَّ التَّوجُهَ حِينَهَا كَانَ أن يَبقَى قِسمٌ مِنَّا فِي الدَّاخِلِ كَي لَا يَستَملِكَ النِّظَامُ أرَاضِينَا كَمَا فَعلَ فِي "داريا" و بعض مناطق "حمص"، فَترك جُزءٍ مِنّا هُنالِكَ أفضَلُ مِن إفرَاغِ الغُوطَةِ للنظامِ فَيَستَبِيحَ أرَاضِيهَا بِحُجَّةِ قَانُونِ الاستِملاكِ الذي طَرَحَهُ مُؤخَّراً .

لم أكُن أنتبه عِندَ قِراءَتِي للتَّاريخِ سِوَى أنَّ هُنالِكَ مُنتَصِراً وَخَاسِراً فِي كُلِّ المَعارِكِ الَّتِي تَدُورُ رَحاهَـا بَينَ جَيشَينِ أو شَعبٍ يُنَاهِضُ حُكُومَتَهُ، وَلَكِن مَا رَأيتُهُ حِينَهَا كَانَ مُختَلِفاً عَن مَفَاهِيمِي الَّتِي رَسَـمتُهَا مِـن خِلالِ تَتَبُّعِي للتَّجَارُبِ السَّابِقَةِ، كَانَ مَفهُومَاً جَديداً مُضَافاً ، لَم أستَطِع استِيعَابَهُ حِينَهَا، وَلَم أكُن أَلتَفِتُ إليهِ حِينَ كِتَابَتِه فِي زَوَايَا التَّارِيخِ، ألا وَهُوَ مَفهُومُ الاستِسلَام.

← لَم تَنتَهِ الخَيَارَاتُ بَعد، وَلَم نُعدَم حِيلَةً؛ فَلِمَاذَا يَستَسلِمُ هَؤُلاءِ؟ لِمَاذَا اختَارُوا ذَاكَ الخَيارَ الَّذِي كَـانُوا يُحَارِبُونَهُ مُنذُ سَبعِ سَنواتٍ رُغمَ وُجُودِ خَيارٍ أخَرَ، مَا هُوَ الدَّافِعُ الأَقوَى الَّذِي جَعلَهُم يَفعَلُون ذَلك؟ حَاوَلتُ مِرَاراً وَتِكرَاراً أن أفهَمَ وُجهَةَ نَظَرِهم، وَلَم أستَطِع.

الاستِسلَامُ: هُوَ ذَاكَ الشُّعورُ الَّذِي كُنتُ أقرَأُهُ، وَأستَغرِبُ مِنهُ حِينَ يَقولُ النَّاسُ فِي المَحشَرِ: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ سورة ((ص)) .

← فَشُعورُ الإفلاسِ مَعَ رَغبَةٍ فِي الخَلاصِ هِيَ مَا تَجعَلُكَ تَختَلُّ لِتلكَ الدَّرَجَةِ، وَتَنظُرَ إلَى أسـوَأ الحُلُـولِ المُمكِنَةِ، مَعَ وُجُودِ البَدِيلِ الأفضَلِ الَّذِي عَجزنَا عَن تَقدِيمِهِ بِشَكلٍ مُقنِعٍ رُبَّمَا .

الكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ مِمَّن عَايَشتُهُم كَانُوا فِي حَالَةِ عَدَمِ اتّخَاذِ قَرَارٍ و حَيرةٍ مِن أمرِهِم، وَكانوا ينتَظِرُون حتَّى آخِرِ لَحظَةٍ يُمكِنُ تَأخِيرُهَا لاتِّخَاذِ القَرَارِ الَّذِي لَم يَأخُذ وَقتَهُ الكَافِي صَرَاحَةً؛ لِيُغمِضَ عَينَيهِ فِيمَا بَعد، وَيضَعَ نَفسَهُ تَحتَ الأمرِ الوَاقِعِ، فَتركُ الأرضِ الَّتِي حَارَبت مِن أجلِهَا تِلكَ السَّنَواتُ تَصعُبُ عَلى النَّفسِ، فَمَا بَالُكَ بِذَهَابِكَ لِلمَجهُولِ.

↵ تُفَكّرُ فِي أولَادِكَ الَّذينَ لَم يَرَوا الأمَانَ قَطّ تَارَةً وَتَارَةً أُخرَى تَنظرُ إِلَى وَالِدَتِكَ الَّتِي رَسَمتِ الحَربُ عَلَى وَجهِهَا أقسَى تَجَاعِيدِ الحَياةِ، فَهل تَأخُذُهم مِن حُضنِ جَهنَّمَ إِلَى المَجهُولِ .

نَعَم أُوَافِقُكَ الرَّأي أنّ القَرَارَ مِن بَعيدٍ قَد يَكُونُ وَاضِحًا، وَالنَّظَرُ إِلى الأمرِ مِنَ الأعلَى قَد تَستَطِيعُ أن تَحسُمَهُ، وَلَكِن صَدّقنِي بأنّ الواقعَ أصعبُ مِن أن يُشرَح، مَعَ فِقدَانِ القِيَادَاتِ وَالقُدُواتِ، أذكُرُ أنَّ الأيَّامَ السَّبعَ العِجَافِ تِلكَ كَانَت بِحَجمِ تِلكَ السَّنَواتِ السَّبعِ الَّتِي سَبَقتَهَا.

كَانَ حِينَهَا مَن قَد قَرَّرَ الرَّحيلَ يُحاوِلُ أن يُسرِعَ بِذلكَ بِقدرِ المُستَطَاعِ، فَهُوَ يُرِيدُ أن يَطوِيَ تِلكَ الحِقبَةَ الزَّمنِيَّةَ مِن التَّردُدِ؛ لأنَّ بَترَ المَوقِفِ أهوَنُ مِن التَّفكِيرِ بِمَا قَد يَحدُث.

بَقِيَ فِي الغُوطَةِ:

- ✓ مُنشَقّونَ عَنِ الجَيشِ.
- ✓ مُتَخلِّفونَ عَن سَوقِ الخِدمَةِ الإلزَامِيَّةِ.
- ✓ نُشَطَاءُ فِي الثَّورَةِ مِن إعلَامِيِّينَ وَأَطِبَّاء.
- ✓ نَاشِطونَ فِي مَجَالِ الإغَاثَةِ، وَالمَجالسِ المَحلِيَّةِ.

← تِلكَ الظَّاهِرَةُ الَّتِي مَا زِلتُ أُحاوِلُ تَفسيرَهَا وَذَلِكَ لِمن أَثِقُ بِهم، وَلا زِلتُ لا أُبَرِّئُهم مِن خَطَئِهِم، وَلِكن أُحاولُ أن أصلَ للخَطَأ الَّذي ارتَكبنَاهُ فِي عَدمِ اقتنَاع كُلّ هَؤلاءِ بالخُرُوج معنَا، فَقد كُنَّا عَاجزِينَ عَنِ الإقتنَاع وَتَحَمُّلِ المَسؤُولِيَّةِ وَ تَبِعَاتِهَا، وَلَا أُبَرِّئُ نَفسِي.

انطَوت تِلكَ الصَّفحَةُ مِن عُمرِ القِطَاعِ الأوسَطِ، وَبَدأَ الدورُ عَلَى مَن تَبَقَّى فِي الغُوطَةِ، وهِيَ "دُومَا"، وَالَّتِي بَدأَ بِهَا النِّظَامُ بَعدَ تَهجِيرِ القِطَاعِ الأوسَطِ بِأسبُوع، حيثُ تَمَّ إخرَاجُ قِسمٍ مِنهُم مَعَ القِطَاعِ الأوسَطِ، وَالَّذينَ يَتبَعُونَ لِفَيلقِ الرَّحمَن، إضَافَةً للأسرَى مِنَ الفَصَائِلِ الأُخرَى، لكَ أنّ تَتَصَوَّرَ أنّ تِلكَ العَقلِيَّة استَمَرَّت حتَّى اللَّحظَةِ الأَخِيرَةِ بِالحَمَاقةِ، لِيَبدأَ النِّظَامُ نَفسَ الأُسلُوبِ بِنفسِ الطَّرِيقَةِ الوَحشِيَّةِ أَضِف إِلَى ذَلكَ نَكهَةُ السَّارِين، وَاستِخدَامِه لِلكِيمَاوِيِّ عَلَى المَدَنِيِّينَ وَعَلَى مَرأىً مِنَ العَالَمِ، وَسُكُوتِهِ مَرّةً أُخرَى!

← ثُمَّ ليَأخُذَ النِّظَامُ أطبَّاءَ مدينَةِ "دُومَا" الَّذين عَالَجُوا مُصَابِي مَجزَرَةِ الكِيمَاوِيّ الأَخِيرَة بَعدَ تَهجِيرِ أَهالِي "دُومَا" وَيَسُوقَهم إِلَى الأُمَمِ المُتَّحِدَة لِيَشهَدُوا عَلَى أَنَّ الذِّئبَ قَد أَكَلَ يُوسُفَ، وَلَم يَستَنشِق السَّارِين!

← نَعم السّلاحُ الكِيمَاوِيّ الَّذي تَمَّ سَحبُهُ فِي أَوَاخِرِ [عَامِ ٢٠١٣] وَقَامَت الدُّنيَا وَقَعدَت لِذَلكَ، وَاجتَمَعَت عَلَى أَخذِ السِّلَاحِ الكِيمَاوِيّ مِن هَذَا النِّظَامِ الأَرعَن؛ لِيُعِيدَ استِخدَامَهُ مُجدَّداً، فَمِن عَادَةِ الأُمَمِ المُتَّحِدَة أَن تَتَقَبَّلَ القَتلَ بِأَيّ وَسِيلَةٍ مَوجُودَةٍ عَدَا السِّلاحَ الكِيمَاوِيّ.

لِتَحذُوَ تِلكَ المَدِينَةُ حَذوَ أَخَوَاتِهَا فِي نَفسِ التَّفَاصِيلِ، وَنَفسِ المَشَاعِرِ، وَنَفسِ حَجمِ الأَسَى؛ لِيَخرُجَ مِنَها حَوالِي[١٩ ألفِ شَخصٍ] يَطمَحُ لِلحُرِّيَّةِ، وَلَو كَانَ فِي المَجهُولِ.

لـ كَانَ غِيَابُ الرُّؤيَا وَاضِحاً لِمُستَقبَلِ المِنطَقَة مِن صَانِعِي القَرَارِ فِي الغُوطَةِ، وَكَانَت وَظِيفَتُهم الانتِظَارُ لِمَا قَد يُفعَلُ بِهِم، لَم تَستَطِع هَذِهِ الهَجمَةُ الأَخِيرَةُ أَن تُوحِّدَهُم، تَصَوَّر!

فَالمُزَاوَدَاتُ كَانَت حَتَّى النَّفسِ الأَخيرِ مِن التَّهجِيرِ، فَلم يَتِمَّ إِنشَاءُ أَيّ غُرفَة عَمَلِيَّاتٍ مُشتَرَكَةٍ حَقِيقِيَّةٍ، رُغمَ كُلّ ذَاك الحَشدِ، وَالتَّضخِيمِ الإِعلَامِيّ لِلمَعرَكَةِ مِن قِبَلِ النِّظَامِ، عَداكَ عَن سُقُوطِ بَاقِي المَنَاطِقِ بِنفسِ الطَّرِيقَةِ قَبلَنَا، وَعَدمِ اتّخَاذِ أَيّ تَغيِيرٍ مِن جَانِبِ أَصحَابِ القَرَارِ،

فَلَم نَشهَد تَعبِئَةً عَسكَرِيَّةً؛ بَل الأُمُورُ اتَّجَهَت إِلَى العَكسِ حَيثُ تَفلَّتَت أَكثَرَ، وَأَصبَحَ أَمرُ الدِّفَاعِ دَافِعاً فَردِيَّـاً عَشوَائِيًّا، إِضَافَةً لانعِدَامِ التَّصرِيحَاتِ حَولَ مُجرَيَاتِ المَعرَكَةِ مِن قِبَلِ الفَصَائِل،

وَتَركِ النّاسِ لِكَي يَتَلَقَّفُوا أَخبَارَهُم مِن صَفَحَاتِ النِّظَامِ؛ لِيَتَلاعبَ بِهِم كَمَا يَشَاءُ، وَيَجعَلَهُم وَسِـيلَةَ ضَـغطٍ أُخرَى، وَوَرَقَةً مِنَ الأَوراقِ الرَّابِحَة.

يَستَوقِفُنِي لَحظَاتُ الخُروج، وَلَحظَاتُ الوُصُولِ بَعضٌ مِن المَواقِفِ الَّتِي سَأَسرِدُهَا فِي الفَصلِ الأَخير.

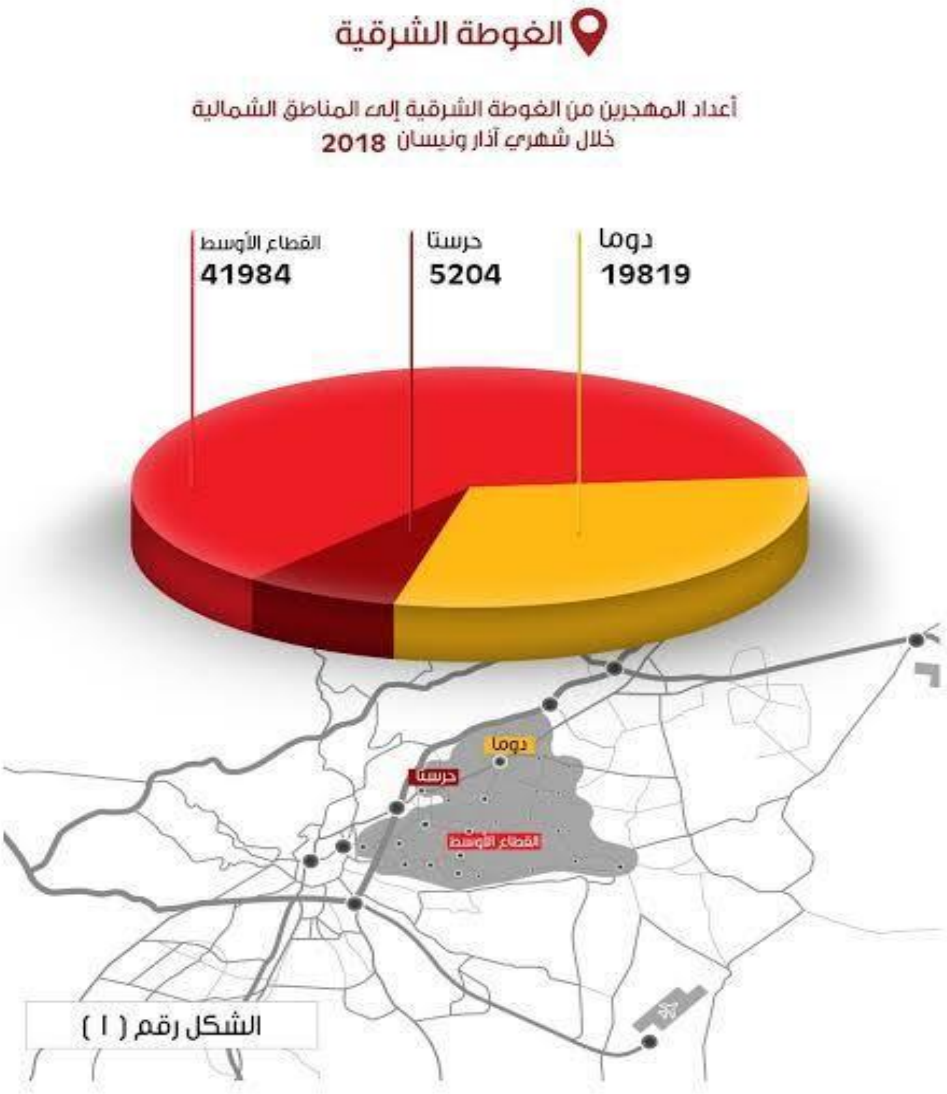

الشكل رقم (١)

﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحدِثُ بَعدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾

الفَصلُ السَّابِعُ :

﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحدِثُ بَعدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾

← لَم يَتَوقَّفِ الصِّرَاعُ المَنهَجِيُّ حَتَّى أخرِ لَحظَاتِ التَّهجِير، وَحَتَّى كِتَابَتِي لِهَذَا الكِتَابِ، فَالاختِلَافُ فِطرَةٌ، وَلَكِن كَيفِيَّةُ التَّعَامُلِ مَعَ هَذَا الاختِلافِ هُوَ مَا يُمَيِّزُ الحَضَارَاتِ وَالحَركَاتِ وَالتَّيَّارَاتِ عَن بَعضِهَا فِي كُلِّ عَصرٍ، كَانَ النَّاسُ قَد استَنفَذُوا طَاقَتَهم طَوَالَ حَربٍ امتَدَّت سَبعَ سَنَواتٍ تَرافَقَت مَعَ حِصَارٍ وَجُوع وَيُضَافُ لِذَلكَ الرَّحيلُ إِلَى المَجهُولِ.

↵ كُلُّ ما جرى لَم يَخُطَّ عَلَى وُجُوهِنا الحُزنَ كَمَا خَطَّت تِلكَ الخِلافَاتُ بينَ تِلكَ الفَصَائِلِ ،حتَّى بَعدَ الهَزِيمَةِ وَالتَّهجِير، كَانَت النَّاسُ تَتَألَّمُ مِن الدَّاخِلِ و لَا تَدري أيُّها أكثَرُ إيلامًا!

أَلَم يَكتَفِ هَؤُلاءِ بِمَا فَعلُوهُ، وَسَلَبُوهُ مِن هَذِهِ الثَّورَةِ الَّتِي كُلّ مَطلَبِهَا أن يَرحَلَ طَاغِيَةُ العَصر؟، وَيختَارُوا مَن يَحكُمَهُم بِكُلِّ بَسَاطَةٍ.

لَم يَتَخَيَّلُوا حَجمَ التَّعقِيدِ الَّذِي وَصَلُوا إليهِ، وَلَم يَكُن بِالحُسبَانِ الثَّمَنُ الَّذِي سَيدفَعُونَهُ لِمُجَرَّدِ المُطَالَبَةِ بِأَقَلِّ الحُقُوقِ المَنصُوصِ عَلَيهَا بِدَايَةَ أيّ قَانُونٍ يُقَنِّنُ حَيَاةَ البَشَرِ سَواءً كَانَ مِن تَعَالِيمِ السَّمَاءِ أم مِن دساتير العقلاء .

← وأَخِيراً هَا نحن وَصَلنَا إِلَى مَا كُنَّا نَرَاهُ حَقِيقَةً، وَلَا نُرِيدُ أن نَقتَنِعَ بِهِ، وَصلنَا إِلَى أعتَابِ البَاصِ.

← مِن هُنَا خَرجنَا رَمَاداً أَسوَداً، نُلَملِمُ مَا تَشَظَّى مِنَّا، نُسِلنَا كَالأَجدَاثِ مِن مَسَاقِطِنَا إِلَى "إِدلِبَ الجَمِيلَة"،

أذكُر تَمَامَاً تلكَ الوُجُوهَ الشَّاحِبَةَ المُتعَبَةَ، وَعُيونَ الأَطفَالِ الغَائِرَةِ البَاهِتَةِ، أُرَاقِبُ تَمَامَاً تِلكَ العَجُوزَ الَّتِي عَلَى كُرسِيِّهَا المُتَحَرِّكِ، وَ هِيَ تَتَّجِهُ نَحوَ وَدَاعِ ابنِهَا الَّذِي يُطِلُّ عَلَيهَا مِن إِحدَى نَوَافِذِ البَاصِ،

أُمعِنُ النَّظَرَ فِي كُلِّ مَن حَولِي، وأَحفَظُ تِلكَ المَوَاقِفَ الَّتِي لَا تَحصُلُ إلا فِي كُتُبِ التَّارِيخِ، أُتَابِعُ حَرَكَةَ النَّاسِ، وهِيَ تَحمِلُ حَقَائِبَهَا لِتَبحَثَ عَن بَعضٍ مِنَ الحُرِّيَّةِ.

← مِنَ المَوتِ إِلَى المَجهُول، استَوقَفَتنِي مَشَاهِدُ عَدِيدَةٌ أَنذَاكَ كَانَ أَبرَزَهَا:

مُحَاصَصَةُ الفَصَائِل حتَّى تِلكَ اللَّحظَةِ لبَعضَها عَن طَرِيقِ فَرزِ عَدَدِ البَاصَاتِ حَسبَ تَعدَادِ ذَلكَ الفَصِيلِ، كُنتُ أَرَاهُم يَتَشَاجَرُونَ حتَّى اللَّحظَاتِ الأَخِيرَة تلك ، لَم أَفهَم مَا سِرُّ هَذَا التَّمَسُكِ بِالمُسَمَّيَاتِ عَلَى الرُّغمِ مِن الخَسَارَة!

هَل تَطَوَّرَ الدَّافِعُ المَادِيُّ لِدَافِعٍ عَقَدِيٍّ وُجُودِيّ لِتِلكَ المُسَمَيَاتِ، وَالَّتِي لَن تَعُودَ صَالِحَةً بِمُجَرَّدِ رُكُوبِ البَاص!

كَانَ مَنظَرُ المَحشَرِ فِي مفرَقِ "عِربِينَ" كمَا أَسوَارُ رُومَا المُهَدَّمَة، الَّتِي كُنَّا نَرَاهَا فِي الأَفلَامِ السِّينِمَائِيَّةِ، عندَمَا تَروِي تَرَاجِيدِيَّاتِ شُعُوبٍ حَصَلَت فِي عُصُورِ الشَّتَات.

← يَحمِلُونَ مَا يَستَطِيعُونَ مِن أَطفَالِهِم وَأَشلَائِهِم، وَمِن شُحُوبٍ، وَجُوعٍ، وَحِصَارٍ، وَخَوفٍ مَعهُم، وَيَسِيرُونَ نَحوَ مَا لا يَعرِفُون، لَم يَستَطِع مِيزَانُهُم أَن يُسَاوِي بَينَ كُلِّ تِلكَ المُعَانَاةِ وَالبَقَاءِ تَحتَ سَطوَةِ سَفَّاحِ العَصر، وَمُجرِمِ الكِيمَاوِيّ.

لـ كَانَ السُّؤَالُ الأَشيَعُ حِينَهَا [شُو؟]، وَالَّذي يَعقِبُه فَوراً تِلكَ الإِجَابَةُ مِن دُونِ تَفكِيرٍ [مَا بَعرِف!]، كَانَ هَذَا السُّؤَالُ المُختَصَرُ يَحمِلُ فِي طَيَّاتِهِ مَجمُوعَةً مِن أَسئِلَةٍ وُجُودِيَّةٍ.

هَل يُمكِنُ بَعدَ سَبعِ سَنَواتٍ أَن نَترُكَ مَا ضَحَّينَا بِهِ هَكَذا، وَنَترُكَ تَضحِيَاتِ مَن قَبلَنَا سُدَىً؟ هَل يُمكِنُ لِلحَقِّ أَن يُهزَمَ؟

وَهَل يُمكِنُ أَن نُعَاقَبَ عَلَى صَبرِنَا بِالتَّشرِيدِ؟ لِمَاذَا لَم تَكُن تِلكَ النِّهَايَةُ كَمَا الَّتي نَقرَأُهَا، أَم أَنّ الكُتُبَ لَم تَكتُب إِلَّا الشَّيءَ الجَمِيلَ الَّذِي يَجذِبُ القُرَّاءَ؟ أَم أَنَّنَا بِالأَصلِ لَم نَقرَأ إِلَّا مَا كُنَّا نُحبُّ، وَهُوَ فَوزُ البَطَلِ فِي نِهَايَةِ كُلِّ قِصَّةٍ!

رِحلَةُ الخَلاص :

← نَركَبُ البَاصَ، وَيَمضِي بِنَا، تَستَغرِقُ الرِّحَلُ يَومِيًّا بَينَ [١٧ و ٢٤ سَاعَةٍ] لِرِحلَةٍ لا تَستَغرِقُ عَادَةً [٥ سَاعَاتٍ] عَلَى أَعلَى تَقدِيرٍ، استَمَرَّت تِلكَ الرِّحَلُ اليَومِيَّةُ عَلَى مَدارِ الأُسبُوعِ لِلقِطَاعِ الأَوسَطِ .

تَبدَأُ مِن خُرُوجِنَا أَمَامَ فِرَعِ الجَوِيَّةِ، وَالتَّجَمُّعِ فِي مَنطِقَةِ البَانُورَامَا؛ لِلتَّفتِيشِ هُنَالِك، لِيَصعَدَ ضَابِطٌ رُوسِيٌّ كَي يُقنِعَنَا بِالتَّسوِيَةِ، وَالنُّزُولِ لِمُصَالَحَةِ النِّظَامِ، وَمِن ثُمَّ يَنزِلُ ذَلِكَ الضَّابِطُ الَّذِي لا أَدرِي مَن أَعطَاهُ الحَقَّ بِأَن يُعطِيَنِي تَعلِيمَاتِ الخُرُوجِ مِن أَرضِي، وَ يَنزِلَ خَاوِي الوِفَاضِ؛ لأَنَّ مَن صَعَدَ لَم يَكُن لِيَنزِلَ فَقَد حُسِمَ الأَمرُ.

↵ عِندمَا عَبرنَا أسوَارَ الغُوطَةِ، انصَدَمتُ بِكَمِيَّةِ المُدَرَّعَاتِ الرُّوسِيَّة الَّتِي كَانَت تَصطَفّ، وَكَمِيَّةُ الجُنُودِ الرُّوس ، فإن لَم يُسمَّ هَذَا احتِلَالاً، فَلَا دَاعِي لِتَسمِيةِ الاحتِلَالِ الإنكلِيزِيّ، وَالفَرَنسِيّ فِي الكُتُبِ احتِلالاً،

فَمَن يُفَاوِضُ رُوسِيّ، وَمَن يَقصِفُ رُوسِيٌّ، وَمَن يُحَاصِرُ رُوسِيّ بِمُدَرَّعَاتٍ رُوسِيَّةٍ، وَبَعضٍ مِن حُثَّالاتِ جَيشِ النِّظَامِ تَحُومُ حَولَهُ كَالذُّبَابِ عَلَى مُخَلّفَاتِ المَوَاشِي.

← نَقفُ للتَّفتِيشِ، وَإعطَاءِ التَّعلِيمَاتِ لِسَاعَاتٍ، وَمِن ثُمَّ تّبدأُ القَوَافِلِ بِالتَّحَرُّكِ، الغَرِيبُ فِي الأمرِ أنَّ القَوَافِلَ كَانَت تَسِيرُ وِفقَ خَطٍّ أطولَ مِمَّا هُوَ عَلَيهِ فِي الخَرِيطَةِ، فَهُم يُدخِلُونَ البَاصَاتِ فِي الضِّيَعِ وَالبَلَدَاتِ الَّتِي كَانَت خَزَّانَاً بَشَرِيَّاً لِلنِّظَامِ فِي مَدِينَةِ طَرطُوس، لِرَفعِ مَعنَوِيَّاتِهِم، يَبدُو أنَّهُ قَد استَهلَكَ مِنهُم الكَثِيرَ لِبَقَائِهِ عَلَى كُرسِيِّ الحُكمِ، وَيُحَاوِلُ أن يَظهَرَ لَهُم بِأنّهُ المُنتَصِرُ، وَلَكِن لَا أظنُّ أنَّهُ وَصَلَ لِذَلِك.

← لتتَعالَى أصوَاتٌ مِن بَينِهِم بِأنَّ هَؤُلاءِ تَحمِيهِم رُوسيَا عِندَ خُرُوجِهِم بَينَمَا أبنَاءُ تِلكَ الضّيعِ يُعِيدُونَهُم فِي التَّوَابِيتِ، كُنتُ أسمَعُهَا عِندَ كُلِّ مَوقِفٍ نَقِفُ فِيهِ أمَامَهُم أو أرَى تَعلِيقَاتِهِم عَلَى مَوَاقِعِ التَّوَاصُلِ الاجتِمَاعِيّ، نَعَم خَسِرنَا نَحنُ فِي هَذِهِ المَعرَكَةِ، وَلَكِن لَم نَنتَهِ بَعدُ.

كَانَت سِياسَتُه بِإدخَالِنَا فِي مَنَاطِق شَبِّيحَتِه دَنِيئَةً نَوعاً مَا، وَعِبَارَاتُهُم المُؤذِيَةُ لَنَا تَجعَلُنَا مِنَ المُستَحِيلِ أن نَغفِرَ لَهُم يَوماً مَا، فَكَمِيَّةُ الأَلَمِ الَّذي نَحمِلُه يَجتَازُ خُطُوطَ تَحَمُّلِ البَشَرِ، وَذَلكَ لِشِدَّةِ مَا مَرَرنَا بِهِ.

← كَانَت كُلّ تلكَ الأَعبَاءِ الَّتِي حَملنَاهَا تُثقِلُ كَاهِلَنَا، تَحنِي ظَهرَنَا، كَانَت أَثقَلَ مِمَّا نَتَوَقَّعُ، لِنَدخُلَ فِيمَا بَعدُ فِي مَنَاطِقهم وَنَسمَعَ كَلِمَاتِهم، وَشَمَاتَتِهم بِنَا، كَأَنَّنَا نَحنُ الجُنَاةُ الَّذِينَ قَصفنَا المُدنَ، وَأَرسَلنَا الطَّائِرَاتِ حِمَمَاً فوقَ الأَطفَالِ، وَكَأَنَّنَا مَن قَصَفنَا خِلسةً فِي الظُّلمَةِ أَطفَالاً بِمَادَّةِ [السَّارِين القَاتِل] .

كُلُّ تِلك التُّهَمِ الَّتِي عَانَينَا مِنهَا كَانَت تُوَجَّهُ إلينَا عَبرَ شَتَائِمَ عَابِرَةٍ وُجدَانَنَا، كَانَت تَفصِلُنَا عَنِ الانكِسَارِ التَّامِّ بِضعُ كَلِمَاتٍ أُخرَى، كَانَ لِوَقعِ كَلمَاتِهم فِي تِلكَ اللَّحظَاتِ مَشَاعِرُ تُدمِينَا، أَنظُرُ إِلَى الأَطفَالِ مِن حَولِي أُشَاهِدُ نَظرَاتِ الجُوعِ وَالخَوفِ الجَدِيدِ الَّذِي انطَبَعَ عَلَى وُجُوهِهِم جَرَّاءَ تَهدِيدَاتِ هَؤُلاءِ البَربَر خَلفَ زُجَاجِ البَاصِ، وَإِشَارَاتِهم بِأَنَّهُم قَادِمُونَ لِذَبحِنَا مِن جَدِيدٍ.

كُنتُ أَلمَحُ عَلامَةَ الخُذلَانِ وَالرُّعبِ فِي عُيونِ أَطفَالِنَا الَّذِينَ يَشتَاقُونَ لأَحدٍ لا يُرِيدُ قَتلَهُم أو استِهدَافَهُم بِالبَرَامِيلِ مَرَّةً أُخرَى، كَانُوا يَحلِمُونَ بِقطعَةِ خُبزٍ كَامِلَةٍ كُلَّ يَومٍ يَأكُلُونَهَا مِن غَيرِ أن يَصطَفُّوا عَلَى الدَّورِ لِسَاعَاتٍ كَي يَحصِلُوا عَلَى حَفنَةٍ مِن شَعِيرٍ، إن وُجِدَ.

↵ فِعلاً كَانَت لَحظَاتٍ تَمَنّينَا فِيهَا أن نَخرُجَ بِلا عَودَةٍ، وَأَنَا كُنتُ كَذلكَ، حَتَّى عِندَمَا وَصلَتُ لَم أَتَمالَك نَفسِي، وَكَتَبتُ مَقَالاً بِعِنوَانِ: [لَن أعُود]، كَانَت مَشَاعِرُ الكُرهِ تَتَملَّكُنَا ضِدَّ كُلِّ ذَاكَ الَّذِي يَنبِذُنَا مِن أرضِنَا، وَضِدَّ كُلِّ مَن يَدَّعِي المُشَارَكَةَ فِي الوَطَنِ، لِمَاذَا عَلينَا أن نُشَارِكَهُم نَحنُ فَقَط فِي حِينِ أَنّهُم لَا يَدَعُونَ مَجَالاً لنَا للمُشَارَكَةِ؛ بَل لا يَدَعُونَ لَنَا مَجَالاً لِلعَيشِ حَتَّى.

نَعَم، تِلكَ المَشَاعِرُ كَانَت تُرَاوِدُنَا كُلّنَا مَعشَرَ البَاصَاتِ بَعدَ كُلِّ تِلكَ الجِرَاحِ المُتَرَاكِمَةِ لَا تَستَغرِبُ أَيَّةَ رَدَّةِ فِعلٍ مِن أيّ شَخصٍ ظَلَمَ حَتَّى القَهرِ، وَلَكنَّ المُفَارَقَةَ الرَّائِعَةَ كَانَت فِيمَا بَعد.

↵ بَعدَ أن نَجَونَا مِن تِلكَ القُرَى المُظلِمَةِ، كَانَت هُنَالِكَ سُهُولٌ خَضرَاءُ وَاسِعَةٌ، وَذَلكَ لِتَصَادُفِ خُرُوجِنَا مَعَ بِدَايَةِ فَصلِ الرَّبِيعِ، كَانَت جَمِيلَةَ المَنظَرِ مُرِيحَةً للنَّفسِ، نَسِيرُ لِنَسرَحَ فِي خَيَالِنَا إِلَى أن شَاهَدنَا مِن بَعِيدٍ حَاجِزَاً أخبَرُونَا بِأَنَّهُ الحَاجِزُ الأَوَّلُ لِلمُحَرَّرِ، كَانَ ذَلكَ أَوَّلَ خَبَرٍ جَمِيلٍ نَسمَعُه مِنذُ سَنَوات!

← اقتَرَبنَا إليهِ حتَّى أوقَفَنَا الحَاجِزُ، صَعدَ إلينَا رَجُلَانِ فِي الأَربِعِينِيَّاتِ مِن عُمرِهِمَا، يَصِيحُونَ بِنَا، أَنَّ الأَرضَ زَغرَدَت بِمَجِيءِ أَهلِهَا، وَأَنَّنَا لا نُضَامَ بينَ أَهلِنَا، وَأَنَّهُم يَنتَظِرُونَنَا مُنذُ أَسَابِيعَ، وَلَن يَعُودُوا إِلَى أَهَالِيهِم حتَّى يُسَلِّمُوا عَلَى أَهلِ الشَّامِ الَّذِينَ خَرجُوا إِليهِم!

كَانَت تِلكَ الكَلِمَاتُ كَافِيَةً لَنَا، كُنَّا نُرِيدُ بَعضَاً مِن تِلكَ الَّتِي تَحنُو عَلينَا، بَعضَاً مِن النَّاسِ الَّتِي لا تُرِيدُ قَتلَنَا وَتَجوِيعَنَا، بَعضَاً مِنَ العَطفِ عَلَى أَطفَالِنَا، قَلِيلاً مِنَ الرَّحمَةِ.

كَانَت لَحَظَاتٍ لَا تُنسَى، هَل هُم أَهلُنَا الحَقِيقِيُّونَ؟، مَن يَكُونُوا أُولئِكَ الَّذِينَ قَابَلنَاهُم قَبلَ قَلِيلٍ؟، وَمِـن أيّ طِينٍ أسودٍ قَد عُجِنُوا؟

فِي كُلِّ دَقِيقَةٍ يَصعَدُ إلينَا شَخصٌ يَرفَعُ مِن مَعنَوِيَّاتِنَا، كُنَّا نَتَمنَّى لَو أَنَّنَا بَقِينَا أَكثَرَ فِي هَذَا الطَّرِيقِ، كَانَ النَّاسُ فِي الطُّرقَاتِ يَقُولُونَ لَنَا: ((الحَمدُ للَّهِ عَلَى السَّلَامَةِ))، فِي حِينِ أَنَّنَا وَقَبلَ ذَلكَ بِعدَّةِ كِيلُومِترَات، يُهَدِّدُونَ أَطفَالَنَا بِالذَّبحِ، كَانُوا يَتَسَابَقُونَ لِسَدّ رَمَقِنَا مِن الجُوعِ، فَرِحلَةُ السَّفرِ الَّتِي دَامَت [٢٤ ساعة] لَم يُطعِمنَا النِّظَامُ شَيئَاً، وَلَم يَسمَح لنَا بِقَضَاءِ الحَاجَةِ سِوَى مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ، كَانَ يَنتَقِمُ مِنَّا حتَّى آخِرِ لَحظَةٍ.

تِلكَ الوُحُوشُ الَّتِي كُنَّا نَعِيشُ مَعَها يَا مَن تَقرَأُ، تِلكَ المَخلُوقَاتُ الَّتِي لَا تَتَمتَّعُ بِشيءٍ مِنَ الآدَمِيَّةِ، كَانَت تُحكِمُ الخِنَاقَ عَلينَا، وَكَانَت تُمسِكُ بِأَعنَّتِنَا طِيلَةَ سَنَواتٍ.

كَم لَبِثنَا حَقَّاً:

- حتَّى اعتَدنَا انعِدَامَ الحُقُوقِ وَالقَبُولِ بِالأَدنَى لِكُلِّ مَا هُوَ حَاجَةٌ فِطرِيَّةٌ.

كَم لَبِثنَا حَقَّاً:

- فِي هَذَا السِّجنِ الكَبِيرِ لِنَخرُجَ، وَنَرَى أَنَّ الحَيَاةَ مُستَمِرَّةٌ لَا كَمَا كُنَّا نَظُنُّ.

كَم لَبِثنَا:

- وَنَحنُ نَأمَلُ بِأَن نُصَلِّي فِي الجَامِعِ الأُمَوِيِّ مَعَ شُعُورٍ يُخَالِطُنَا بِأَنَّهُ قَد عَادَ لنَا مِن جَدِيدٍ.

لَا أدري كَم لَبثنَا، وَلَكِن كُلُّ مَا أدريهِ أنَّنَا خَرجنَا أحيَاءً بَعدَ ذَلكَ، فَصِرنَا نَتَلَمَّسُ وُجُوهَنَا وَأيدِينَا كَي نَتَأَكَّدَ مِن حَقِيقَةِ الأمرِ، أظُنُّ أنَّنا لَبِثنَا مَا يَكفِي لِكَي نُدرِكَ بَعضَاً مِنَ الحَقَائِقِ الَّتِي كُنّا نَتَوَهَّمُهَا فِيمَا مَضَى عَلَى أنَّهَا كَذَلكَ، ثُمَّ كَشَفَت عَورَتَهَا تِلكَ السِّنُونُ.

دَخلنَا مِنطَقَةَ "الصَّوَامِع" فِي مِنطَقَةَ القَلعَةِ "بِرِيفِ حَمَاةَ"، وَمَازِلنَا لَا نَستَوعِبُ الأمرَ، هَل هَذِهِ الجَنة؟ هَل انتَهَى الحِسَابُ، أظُنُّ أنَّ الأُمُورَ كَانَت طَبِيعِيَّةً، وَلَكِن لِشِدَّةِ حِرمَانِنَا، وَجدنَا الجَنَّةَ عِندَ الصَّوَامِع!

كَانَ تَعَامُلُ النَّاسِ مَعنَا، وَمَعَ جَرحَانَا، وَمَعَ أطفَالِنَا كَمَا البَشَر، تَصَوَّر!.

كَانُوا يُقَدِّمُونَ لنَا مَا نَحتَاجُهُ وَأكثَر، كَانُوا مُدرِكِينَ مَاكُنّا فِيهِ، فَهُم بَشَرٌ مِثلُنَا، وَيَشعُرُونَ بِنَا.

بِالرُّغمِ مِن ضِيقِ الوَقتِ مِن لَحظَةِ نُزُولِنَا مِن البَاصَاتِ فِي "رِيفِ حَمَاةَ"، وَإِلَى أن تَوَجَّهنَا لـ "إِدلِبَ" إِلَى بُيُوتِهِم لِيَستَضِيفُونَا بِهَا، أَظنُّهَا كَانَت عِبَارَةً عَن سَاعَاتٍ، وَلَكِن شَعَرنَا بِهَا كَأَنَّهَا سَنَواتٌ جَمِيلَةٌ، جَبَرُوا فِيهَا خَوَاطِرَنَا، وَكَسرَنَا، وَلَملَمُوا فِيهَا جِرَاحَنَا.

أَظُنُّهم يَعرِفُونَ أَنَّ التَّارِيخَ سَيَذكُرُهم، وَهُم أَهلٌ لِذَلكَ الذِّكرِ الطَّيبِ، فَالتَّارِيخُ لا يَنسَى المَعرُوفَ .

دَخلنَا "إِدلِبَ"، فَكَانَ أَهلُهَا خَيرَ أَهلٍ لَنَا، فَاسَمُونَا بُيُوتَهُم، وَبَضَائِعَهُم، كَانَت بَوَادِرُهُم لَا تَتَوَقَّفُ..

لَا أَقصِدُ المُنَظَّمَاتِ، فَهِيَ تَعمَلُ ضِمنَ هَذَا المَجَالِ؛ بَل مَا أَقصُدُهُ هُم أَهلُ تِلكَ المُحَافَظَةِ المَنسِيَّةِ الَّذِينَ احتَوَوا ضَعفَنَا وَجَبَرُوا كَسرَنَا بَعدَ سَبعِ عِجَافٍ.

لَستُ أَهلاً لِمَدحِهِم، وَلَكِن أَعَادُوا فِينَا الأَمَلَ مِن جَدِيدٍ، بِأَنَّ هَذَا النِّظَامَ عِندَمَا يُهمِلُ مِثلَ تِلكَ المُحَافَظَةِ الجَمِيلَةِ يَجِبُ إِسقَاطُهُ، وَلَو لَم يَقتُل أَو يَقصِف، فَكَيفَ بِمَن قَتَلَ، وَأَجرَمَ، وَشَرَّدَ!

كَم لَبِثنَا ...

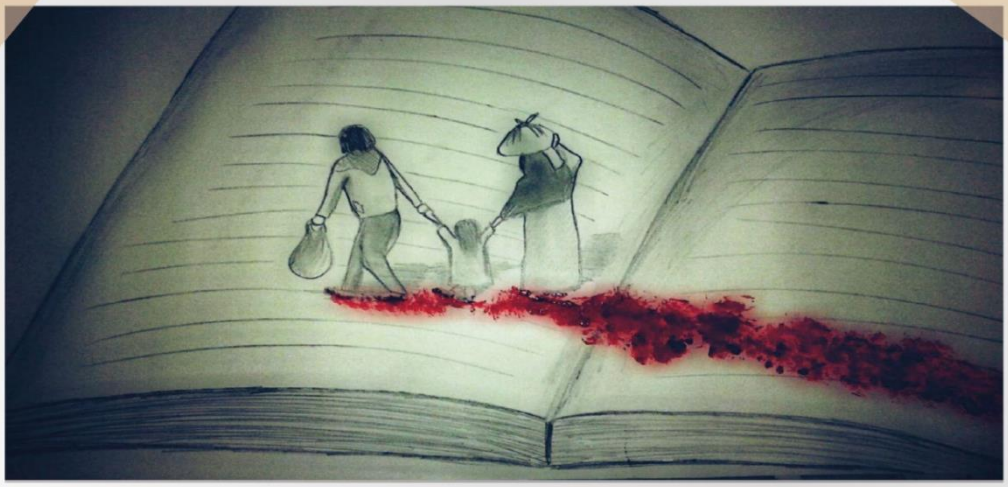

إلَى هُنَا أنتَهي مِن سَردِ بَعضِ الأحدَاثِ الَّتِي حَصَلت فِي الغُوطَةِ الشَّرقيَّةِ فِي تِلكَ المِئَويَّةِ الدَّامِيَةِ، وَبَعضِ الأسبابِ الَّتِي أحبَبتُ أن أُسَلِّطَ الضَّوءَ عَلَيهَا بَعِيداً عَنِ التَّحَزُبَاتِ بِإنصَافٍ وَتَجَرُّدٍ، وَذَلكَ بُغيَةَ التَّعَلُّمِ مِنَ الأخطَاءِ، وَلَيسَ جَلداً للذَّاتِ فَحَسب.

((كلمةٌ لمُدَقِقِ الكِتَاب)) :

سِفرٌ ميمون، يُحاولُ كاتبهُ أن يوثّق حُقبَةً تاريخيةً في أرضِ الغوطةِ الشرقيةِ بَعدِ التّهجيرِ القَسْري إبّانَ الحَربِ الغَشُومِ والفِتَنِ التي حَلَّت بِها فَغَدا هَذا السِفْرُ بِمَثَابةِ شَاهِدِ عَيانٍ على مَا حَلَّ بذلك الشعبِ المَكْلوم المُشَرَّد النَّازح لعلهُ يطْرُقُ أسمَاع الإنسانيةِ ومَن يَتَشَدَّقُ بها ليُثبتَ للعَالم أجمَع مَن الجَاني ومَنِ الضَحيَّة ومما يُمَيِّزُ الكتَاب أنَّه وبِحَسبِ عِلمي أوَّلُ عملٍ يُوَثِّقُ ما عَاشَتهُ الغوطةُ بعدَ اقتلاع أهلِها منها وتهجيرهم قَسريًّاً .

وأَخِيراً:

لَا بُدَّ لِكُلِّ عَمَلٍ مِن رِسَالَةٍ، وَرِسَالَتِي هُنَا [لنَا وَلِمَن سَيأتِي بَعدَنَا]:

لَعلَّ ذَاكَ السَّردَ يُشعِلُ فِينَا العَودَةَ مِن جَديدٍ، فَنَحنُ أَصحَابُ الحَقِّ، وَأَصحَابُ الحُرِّيَّةِ، وَلَعَلَّ تِلكَ الأَخطَاءَ تَكونُ لَنَا دَرساً، وَلَو كَانَت أَقسَى مِمَّا كُنَّا نَتَوَقَّعُ، إِلَّا أَنَّها كَانَت وَسِيلَةً للاستِفَادَةِ مِنها لَاحِقَاً، لَا أَن نَجلِدَ ذَوَاتِنَا بِهَا فَحَسب؛ فَمَعرَكَتُنَا مَعَ النِّظَامِ لَم تَنتَهِ بَعدُ، وَنَحنُ لَن نَنتَهِيَ حَتَّى نَرَاهُ يُحَاسَبُ فِي مَحَاكِمِنَا قَبلَ مَحَاكِمِ السَّمَاءِ.

لَرُبَّمَا كَانَت هَذِهِ الفَترَةُ فَترَةَ استِرَاحَةٍ وَتَرمِيمٍ لَنَا كَمَا كُنَّا نُطلِقُهَا عِندَمَا كُنَّا فِي الغُوطَةِ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ التَّرمِيمَ لَن يُنسِينَا بُوصلَتِنَا الَّتِي مَازِلنَا نَذكُرُهَا كَدُعَاءٍ عَقِبَ كُلِّ صَلَاةٍ، وَمَازَالَتْ تَرنُو إِليهَا أَفئِدَتُنَا، "فلنحيا كراماً".

وسام غياث القالش

«كم لبثنا»

((ربما ظلمت أحداثاً كانت في نظر البعض من مفاصل ما قد جرى و لم أتطرق إليها، و قد يكون على صواب و لكن هذا ما استطعت و أسأل اللّه القبول.....))

رابط المدونة :

https://5ead6a3c0d326.site123.me/

رابط الفيس بوك :

https://www.facebook.com/wissam.alkalish

بقلم
وسام غياث القالش

تاريخ الإصدار 2020